جـــورج ســيمــونــون

الكلبُ الأصْفَر

مــيغــريــه

السلسلة البوليسية

صوت الناس

الكلب الأصفر

LE CHIEN JAUNE

by

GEORGES SIMENON
(MAIGRET)

ترجمة

بسام حجار

P.O.Box:7038 - Limassol
CYPRUS

P.O.Box:113/5796 -Beirut
LEBANON

ISBN 1-85513-144-7

الطبعة الأولى: حزيران/يونيو ١٩٩٣
الغلاف: تصميم رملة شماعة
رسوم شيفورن كوريفان

المحتويات

١ ـ الكلب الشارد ... ٩
٢ ـ الدكتور منتعلاً خفّيه ... ٢٩
٣ ـ الخوف يسود كونكارنو ... ٤٩
٤ ـ سرية المرافقة ... ٦٩
٥ ـ متشرد كابيلو ... ٨٩
٦ ـ رجل جبان ... ١٠٧
٧ ـ رجل وامرأة يستضيئان بنور شمعة ... ١٢٥
٨ ـ زائد واحد! ... ١٤٥
٩ ـ العلبة المصدّفة ... ١٦٥
١٠ ـ لا بيل إيمّا ... ١٨٣
١١ ـ الخوف ... ١٩٩

- ١ -

الكلب الشارد

يوم الجمعة في السابع من شهر تشرين الثاني/نوفمبر كانت شوارع مدينة كونكارنو مقفرة، فيما تشير عقارب الساعة التي تشعّ من فوق أسوار المدينة القديمة الى الحادية عشرة إلّا خمس دقائق.

كان المدُّ البحري في أوجِّه وعاصفة هوجاء تهبّ من الجنوب الغربي وتضرب الزوارق الراسية في المرفأ. فتتلاطم ببعضها البعض وتعصف الرياح غائرةً بين الأزقّة حاملة معها أحياناً قصاصات صغيرة من الورق تتدحرج بسرعةٍ على الأرض

كان حي «الكاي دو لايغويون» مقفراً تماماً ومعتماً والجميع نيام. ما عدا النوافذ الثلاث لفندق «أميرال» الذي يقع عند تقاطع ساحة المدينة ورصيف المرفأ، فقد كانت مضاءة ولا يبدو لهذه النوافذ أبواب متحرّكة ولكنْ، عبر واجهاتها الزجاجية المائلة للاخضرار، تتراءى بصعوبة بعض الأخيلة. لعدد من الرواد المتأخّرين في المقهى، والذين يحسدهم الجمركي المناوب والجاثم في مرقبه على بُعد مئة متر تقريباً.

قُبالته، رست سفينة سواحل في الحوضِ منذ ما بعد الظهر

اتّقاءً للعاصفة. وكانت مقفرة هي أيضاً لولا صرير البكرات التي تشدّ شراعها الأمامي الذي لم يُطْوَ جيّداً، إذ تتلاعب به الرياح. ثمّ جلبة ارتطام الأمواج المتواصل، وتكّة الساعة التي ستدقّ الحادية عشرة.

فُتح باب فندق «أميرال». وبدا من خلاله رجلٌ يتابع لثوانٍ حديثاً بدأه مع أشخاص مكثوا في الداخل. تتلقّفه العاصفة فتتطاير أطراف معطفه، وقبّعته المستديرة التي يستدرك سقوطها في اللحظة الأخيرة ويتابع سيره متشبّثاً بها.

يبدو بوضوح، وإنْ من بُعد، أنّه يسير مبتهجاً، مُترنّحاً، مُدندناً. راقبه الجمركيّ وراح يبتسم حين أصرّ الرجل على اشعال سيكاره. إذ دارت معركة مضحكة بين السكّير ومعطفه الذي يتطاير من حوله، وقبّعته التي طارت ثمّ راحت تكرج مبتعدة على الرصيف. وبعد أن حاول عبثاً اشعال عشرة أعواد ثقاب توجه صاحب القبعة المستديرة الى عتبة من درجتين، ليحتمي بها وينحني. فبرقت شعلةٌ مرتعشة خاطفة. يترنّح المدخّن على أثرها محاولاً استدراك توازنه متشبثاً بقبضة الباب.

لم يسمع الجمركي جلبةً تختلف عن ضوضاء العاصفة التي اعتادها؟ إنه لا يستطيع الجزم بذلك. ثمّ يسترسلُ ضاحكاً إذ يرى العابر الليليّ مترنّحاً متعثراً يتراجع خطواتٍ الى الوراء وقد طوى جسمه في انحناءة غريبة.

وقع أرضاً عند حافة الرصيف، وتدلّى رأسه ملامساً وحل المياه الجارية. راح الجمركي يضرب وركيه بيديه الاثنتين لكي يدفئهما،

وبدا مُستغرقاً بفيض، في تأمّل صرير الشراع وقد تزايدت ضوضاؤه بفعل الرياح.

بعد دقيقة، بعد دقيقتين، يُلقي نظرةً عاجلة على السكّير الذي لم يحرّك ساكناً. بالمقابل يرى كلباً، لا احد يعرف من أين جاء، يقف هناك ويشمه «وعندئذٍ فقط انتابني شعور بأنّ شيئاً ما قد حدث!»، سيقول الجمركي خلال التحقيق.

*

* *

أمّا الروحات والغدوات التي أعقبت ذلك المشهد فيصعب ترتيبها في تسلسل زمني دقيق. يتقدّم الجمركي في اتجاه الرجل الممدّد مطمئنّاً بعض الشيء لوجود الكلب بجواره. كلب أصفر وشرس المظهر. وفوقهما، على علوّ ثمانية أمتار، مصباحُ غازٍ مضاء. في البداية لم يرَ الموظف الحكومي ما يُثير الريبة. ثمّ ينتبه فجأةً إلى ثقبٍ في معطف السكّير وإلى سائلٍ لزجٍ يتدفق من هذا الثقب.

عندئذٍ يهرع الى فندق «أميرال»، ليجد المقهى شبه مقفر. خادمة المقهى. تسند مرفقيها الى حافة الصندوق وقرب طاولةِ رخام رجلان يدخنانِ عقبي سيكارين، وقد ألقيا ظهريهما الى مسند الكرسي ومدّا ساقيهما الى الأمام.

«بسرعة!... جريمة قتل... لستُ أدري...».

يستدير الجمركي ويرى الكلب الأصفر يهرع الى داخل المقهى ويقعي فوق قوائمه عند قدمي الفتاة.

تسودُ المكان حالةٌ من الحيرة والذعر.

«صديقكما الذي خرج للتوّ...».

وما هي إلّا ثوانٍ قليلة حتّى كان الرجال الثلاثة يتفقدون الجثة التي لم تنتقل من مكانها. كان مركز البلدية حيث مخفر الشرطة لا يبعد عن مسرح الجـريمة إلّا خطوات. ومن عادةِ الجمركي أن ينهمك بأقلّ الأمور شأناً. فيهرع قاصداً المخفر، ثمَّ، لاهثاً، يرتمي فوق باب أحد الأطبّاء.

ويردّد عاجزاً عن نسيانِ المشهد:

«لقد ترنّح الى الوراء مثل سكّير وتراجع على هذا النحو ثلاث خطواتٍ على الأقلّ...».

ثمّ الجمهـرة.. خمسـة أشخاص.. ستة.. سبعة.. ومصاريع نوافذ تُفتح من كل صوب، ووشوشات...

يعلنُ الطبيب المقرفص فوق الوحل:

«رصاصة أُطلقت من مسافة قريبة أصابته في بطنه... ينبغي ان يخضع لعملية جراحيّة على جناح السرعة.. فليتصل أحدكم بالمستشفى...».

وعرف الجميع هويّة الجريح، إنّه السيّد موستاغين أحد كبار تجار النبيذ في كونكارنو، رجلٌ سمين طيّب لا يُعرفُ له أعداء.

يقف الشرطيان ـ أحدهما لم يعثر على قبعته ـ حائرين لا يعرفان كيف يباشران التحقيق.

يرتفع صوتُ أحدهم، إنّه السيّد لو بومّيري، فيدرك الجميع على الفور، استناداً الى مظهره ونبرة صوته، انه من عُليّة القوم.

«لقد لعبنا بالورق، في مقهى «أميرال»، المغدور وسرفيير والدكتور ميشـو وأنـا... وكـان الدكتور أوّل المغادرين، منذ نصف ساعة تقـريبـاً... أمـا موستاغين، الذي يخشى من غضب زوجته، فقد غادرنا عند الحادية عشرة تماماً».

تفصيـل محـزن مضحك. كلّهم آذان صاغية لحديث السيّد لو بومّـيري، فينسـون الجـريـح. وها هوّذا يفتح عينيه ويحاول النهـوض متمتمـاً بصـوتٍ ذاهلٍ، ناعمٍ وعذبٍ فتطلق الخادمة ضحكات هستيريّة:

«ما هذا؟...».

لكنّه سرعان ما يشعر بتشنجات موجعة. فترتعد شفتاه وتتقلّصُ قسمات وجهه بينما يسارع الطبيب لإعداد حقنة

الكلب الأصفر يتجوّل بين السيقان. فيقول أحدهم بنبرة تعجّب.

«أيعرف أحدكم هذا الكلب؟..

ـ لم أره من قبل..

ـ لا بدّ أنه أحد كلاب المراكب...».

ففي مظهر الكلب ما يُثير الريبة في أجواء المأساةِ السائدة. ربّما لونـه، لونـه المـائل الى الأصفرِ الداكن؟ ذو قوائم طويلة، شديد الهزال، ورأس ضخم.

على بُعد خمسة أمتار من الجمهرة، راح الشرطيان يستجوبان الجمركي، وهو الشاهد الوحيد على الجريمة.

يُشـارُ الى العتبـة ذات الدرجتين. إنها عتبة منزل بورجوازي ضخم مقفلُ النوافذ. الى يمين الباب، أُلصقَ بلاغُ كاتب عدل يُعلن عن مزاد علني لبيع المنزل يوم ١٨ تشرين الثاني/نوفمبر:

«الثمن الأساسي- ٨٠٠٠٠ فرنك».

يُحاول شرطي أقصى ما في وسعه، ولكن عبثاً، أن يكسر القفل، فيستعين صاحبُ مرآبٍ قريبٍ بمفك البراغي فيخلعه.

تصل سيّارة الاسعاف. يوضع السيّد موستاغين فوق نقّالة. فلا يبقى لأعين الفضوليين إلاّ أن ترمقَ المنزل الشاغر.

إنّه مهجورٌ منذ سنة. تعبق في الرواق رائحةٌ ثقيلة هي مزيج من رائحة البارود والتبغ. مصباحُ جيب صغير يُسلّطُ ضوءاً على بلاط الأرضيّة، فيظهر أثرٌ لرمادِ سيكارة وآثار وحل مما يثبتُ أنَّ أحداً ما قد مكثَ متربّصاً خلف الباب لفترة لا يُستهان بها من الوقت.

رجلٌ لا يرتدي إلاّ معطفاً فوق بيجامته، يخاطبُ زوجته قائلاً:

«هيّا بنا! قُضي الأمر... أمّا البقيّة فستطالعنا بها الجرائدُ يوم غد... السيّد سرفيير هنا...».

وسرفيـير هذا رجلٌ قصيرٌ وبدين، يرتدي معطفاً بلون المسكة، وكان مكثَ برفقةِ السيّد لو بومّيري في مقهى فندق «أميرال» لحظة وقوع الجريمة. ويعمل سرفيير محرّراً في صحيفة «فاردو بريست»، حيث يكتبُ، من بين أشياء أخرى، زاوية فكاهية في عددِ يوم الأحد.

ينهمك بتدوين الملاحظات، ويوزّع ارشاداته، لا بل أوامره، على الشرطيين الحاضرين.

الأبـواب التـي تفضي مباشرة الى الرواق موصدة بالمفتاح. أمّا البـاب الأخـير، عنـد طرف الرواق، والذي يفضي الى الحـديقـة، فمفتوح. الحديقةُ مسوّرة بحائط لا يتجاوز ارتفاعه المترَ ونصف المتر. ومن الجهة الأخرى من الحائط هناك زقاقٌ يفضي الى حي «كي دو لايغويون».

«لقد فرّ الجاني عبر هذا الزقاق!» قال جان سرفيير.

*

* *

في اليوم التالي، استطاع ميغريه أن يَضَعَ، بعد مشقّة وعناء، هذا الملخَّص لوقائع الحادثة. وكان ميغريه قد أُلحقَ بمفرزة حفظ الأمن في «رين» منـذ شـهر تقريباً لضروراتِ اعادةِ تنظيم السلك هناك. وفي ذلك اليوم تلقّى اتصالاً هاتفياً من عُمدة كونكارنو يبلّغه بما جرى.

فحضر الى المدينة على الفور برفقة لوروا، وهو مُفَتِّش لم يعمل معه من قبل.

كانت العـاصفـة ما زالت على أشدها، فتمزّق الزوابع الغيوم المتلبّدة فوق المدينة، فينهمر المطر. كانت المراكب راسية في المرفأ لا تبرحه، كما تناقلت الأنباء خبراً يفيدُ بأن الأنواء تهدّد مركباً بخارياً في نواحي «غلينان».

نزل ميغريه في فندق «أميرال» وهو أفضل فنادق المدينة. وكانت السـاعـة تُقـاربُ الخامسة عصراً وقد حلّ الليل عندما دخل الى المقهى. كان المقهى عبارة عن صالة مستطيلة مُعتمة بعض الشيء،

فُرشت أرضيّتها الرمادية بنشارة الخشب وتوزعت على مساحتها طاولات من رخـام، أمـا واجهاتها الزجاجيّة الخضراء فقد كانت تضاعفُ من طابعها الكئيب.

كان روّاد المقهى الكُثُر يحتلّون عدداً من الطاولات. إلّا أن الناظر اليهم لا يجـد أيـة صعـوبة في تمييز زبائن المحل الدائمين، عن الآخرين أو العابرين الذين يكتفون بالصمت أو الاصغاء الى حوار الآخرين.

وسرعـان ما نهض أحـدهم، وهـو رجـلٌ ذو وجهٍ نضرٍ وعينين مُبتهجتين لا يُفارقُ الابتسام ثغرَه.

«كوميسير ميغريه؟... لقد أبلغني صديقي العمدة بوصولك... لطالمـا سمعتُ عنك... اسمح لي أن أقدّم نفسي... جان سرفيير... أوه!... أنت باريسي، أليس كذلك؟... وأنـا أيضـاً!... لقد عملتُ لسنـواتٍ طويلة كمـديـرٍ للـ«فاش روس»، في مونمارتر. وعملت كمـحـرِّر صحـافي في الـ«بـوتي باريـزيـان» و«اكسلسيـور» و«لا ديبيش»... وكانت تربطني صلة وثيقة بأحد رؤسائك، برتران، ذلك العجوزَ الطيّب، الذي تقاعد في العامِ الماضي وذهب للإقامة في نيبفر منصرفاً الى شؤونه الخاصة... أمّا أنا فقد حذوت حذوه!... تقاعدت من شؤون الحياة العامة، إذا جازَ لي القول... وأساهم في الوقت الحالي، لمجرّد التسلية، في تحرير صحيفة «فار دو بريست...».

كان يتكلّم بحماسٍ لا يوصف، يكاد لا يقف في مكانه مُفرطاً في الايماء.

«تعالَ إذاً، انضمَّ الى طاولتنا... فأقدّم لكَ آخر رباعيّ من فتيان

كونكارنو... هوّذا لو بومّيري، زير النساء الذي لا يكلّ ولا يتعب، صاحب إيرادات ونائب قنصل الدانمارك...».

وبدا مظهر الرجل الذي بادر الى النهوض أقرب الى مظهرِ الوجيه الريفيّ. بنطال الركوب المزيّح، وطماق فروسي مقولب بمقاس الساقين لامع لا أثر لذرة وحلٍ عليه، وربطة عنق من قماشٍ أبيضٍ مُضرّب. كان أملس الشعر يزدانُ وجهه بشاربين مفضّضين وبشرة فاتحة ووجنتين متوّردتين.

«تشرّفنا، يا حضرة الكوميسير..».

وتابع جان سرفيير

«الدكتور ميشو... ابن النائب السابق... وهو بأية حال طبيب على الورق فقط، لأنه لم يمارس المهنة على الاطلاق. وذات يوم، صدّقني، سيقنعك بشراء قطعة أرض... إنه يملك أحد أجمل المواقع المفرزة في كونكارنو، وربّما في مقاطعة البروتانيه كلّها...».

يدٌ باردة، وجه مُفلطح وأنف أعوج. شعرٌ أصهب يفضح مواضع من الصلع برغم أن الدكتور لم يبلغ الخامسة والثلاثين بعد.

«ماذا تشرب؟...».

في تلك الأثناء كان المفتّش لوروا يجري بعض التحريّات في مبنى البلدية ومخفر الشرطة.

كان في جوّ المقهى ما يضفي مسحةً من الكدرِ والكمد. شيء ما يَصْعبُ القولُ ما هو. ومن خلال بابٍ مفتوح تبدو صالة الطعام حيث انهمكت الخادمات في الزي البروتوني التقليدي بإعدادِ الطاولات للعشاء.

وقعت عينـا ميغـريـه على كلب أصفـر رابض بقـرب طاولة الصندوق. رفع عينيه فإذا به يَلْمحُ تنورةً سوداء، ومريولاً أبيض ووجهاً خُلواً من التأنُق إلّا أنه ملفتٌ للانتباه. حتّى انه لم يستطع خلال المحادثة إلّا أن يسترقَ النظر اليه بين حين وآخر.

وكان كلّما التفت نحو الفتاة يُفاجأ بنظراتِها المحمومة اليه..

*

* *

«لولا أن موستاغين البائس، موستاغين الفتى الألينُ عريكةً من بين سكان الأرض قاطبةً حتّى أنّه يرتعد خوفاً أمام زوجته، لولا أنه كاد يموت، لأقسمتُ أنّها دعابة من النوع الرذيل...».

كان ذلك جان سرفيير، إلّا أن لو بوميّري قاطعه حين نادى على الخادمة بدون تكلّف.

«إيمّا!...»

فدنت الفتاة منهم

«إذاً؟... ما هو طلبكم؟...».

كانت الأكواب الفارغة تغطي الطاولة تقريباً.

«لقـد حان وقت المقبّـلات! لاحـظ الصحـافي. أي حان وقت الـ «برنو»... أقداح من البرنو يا إيمّا.. أليس كذلك يا حضرة الكوميسير؟...».

كان الدكتور ميشو ساهماً يتأمّل زرَّ كمّه كأنّه مستغرق في التفكير.

«من كان يتوقّع أن يقف موستاغين قرب العتبة ليشعل سيكاره؟

تابــع سرفيير بصوته الجهوري. لا أحد، أليس كذلك؟ والحالُ أنّ لو بومّيري يُقيمُ، مثلي أنا، في الجهة المقابلة من المدينة! ولذلك لا نسلكُ طريق المنزل الشاغر! وفي مثل تلك الساعة من الليل، لا تجد أحداً سوانا، نحن الثلاثة، يجوب الشوارع... موستاغين ليس من النــوع الذي يقيم العــداوات... إنّــه ما يسمّى باللّين العــريكة، الطيّع... إنه ذلك النوع من الفتيان الذين يطمحون الى نيل وسام جوقة الشرف، ذات يوم...

ـ هل نجحت العملية الجراحية؟...

ـ سينجــو... والأطرف من ذلك أنّ زوجتــه افتعلت شجاراً في المستشفى لأنها مقتنعة بأن القضيّة لها صلة بعلاقةٍ غراميّة!. . أليس أمــراً مُستهجنــاً؟... فصديقنا المسكين ما كان ليجرؤ على مداعبة سكرتيرته خوفاً من العواقب!

ـ كأس مزدوجة!... قال لو بومّيري مخاطباً الخادمة التي كانت تسكب شراب الأبسنت. وأحضري لنا ثلجاً يا إيمّا...».

غادر بعض الزبائن لأنّ موعد العشاء قد حان.

دلفت عصفةُ رياح خلَلَ الباب المفتوح فتطايرت أطراف أغطية الطاولات في صالة الطعام.

«ستقــرأ المقالة التي كتبتها حول هذا الموضوع وفيها حاولتُ تمحيص كلّ هذه الفرضيّات. واستنتاجي أن هناك فرضيّة واحدة مقبولة: وهي أن الفاعل مجنون... فنحن مثلاً نعرفُ كلّ أهل المدينة ولا نرى من بينهم مَنْ فقد صوابه فجأة... لقد اعتدنا على ارتياد هذا المكان كلّ مساء... وأحياناً ينضمّ الينا العمدة للعب الورق...

او موستاغين... او حتّى إذا أردنا أن نلعب البريدج نرسلُ في طلب الساعاتي الذي يقيم على مقربةٍ من هنا...

ـ والكلب؟...

أشار الصحافي بأنّه لا يعلم شيئاً بهذا الشأن.

«لا أحد يعلم من أين أتى... لقد اعتقدنا لبعض الوقت أنه كلب قبطان السفينة «سانت ماري» التي رست في الميناء يوم أمس... ولكن يبدو أننا أخطأنا في اعتقادنا هذا... هناك كلب على متن السفينة لكنّه من نوع «تَرْنُوف»، بينما أتحدّى أيّاً كان أن يعرف الى أيِّ جنسٍ من الكلاب تنتمي هذه الدابّة البشعة...».

وخلال انهماكه بمتابعة حديثه المطوّل أمسكَ سرفيير بالابريق وسكب ماءً في كأس ميغريه.

والخادمة، أتعمل هنا منذ بعض الوقت؟

سأل الكوميسير بصوت منخفض.

ـ منذ سنوات...

ـ ألم تتغيّب مساء أمس لبعض الوقت؟

ـ لم تبرح مكانها... كانت تنتظر ريثما نغادر... وكنا، لو بومّيري وأنا، نتبادل سرد الذكريات القديمة، ذكريات الصبا، يوم كان حُسنُ طلعتنا يكفي وحده لجذب النساء الينا... وليس المال... أليس كذلك يا لو بومّيري؟... إنه يلزم الصمت!... ولكن حين تتعرّف اليه عن كثب، ستدرك جيّداً انه من عشّاق الليالي البيضاء إذا توفّرت له النساء... أتعلم ما الاسم الذي نُطلقه على منزله القائم قبالةِ سوق الأسماك؟... «دارة الرذيلة»... هه!...

«نَخبُك، أيّها الكوميسير» قال، ببعض الحَرَج، الرجلُ الذي دار عنه الحديث.

ولاحظ ميغريه، في اللحظة نفسها، أن الدكتور ميشو، الذي لزم الصمت طيلة الوقت، قد انحنى قليلاً ليتأمل كأسه. كان جبينه مُتغضناً فيما ارتسمت على وجهه المتقع عادةً ملامح قلقٍ مثير.

«مهلاً!...» قال بغتةً بعد تردّد طويل.

ثمّ قرّب كأسه من منخريه، وغمسَ اصبعه في الشراب ثمّ لحسَ ما علق بها. فراح سرفيير يقهقه.

«حسناً!... ها هو ينتابه الهلع بعد حادثة موستاغين...

ـ إذاً؟.. سأله ميغريه.

ـ أعتقد أنّه من الأفضل أن لا نشرب... إيمّا... اذهبي واحضري الصيدليّ الذي في الجوار، بسرعة...».

أشاع كلام الدكتور جوّاً من البرودة. وبدت الصالة أكثر شغوراً، وأشدُّ كآبة. كان لو بومّيري يمسِّدُ شاربيه بعصبيّة ظاهرة. وحتى الصحافي اضطرب في جلسته.

«ما رأيُك؟...».

كان الدكتور مُقَطِّباً يُمعنُ النظر في محتويات كأسه. ثمّ نهض وتناول قنّينة الـ«برنو» عن الرفّ، وخضّها قليلاً تحت نور اللمبة، فاستطاع ميغريه أن يرى بوضوح بزرتين بيضاويتين أو ثلاث على وجه السائل.

عادت الخادمة وبرفقتها الصيدلي الذي لم يُنهِ مضغ لقمته.

«اسمع يا كرڤيدون... يجب أن تجري تحليلاً فورياً لمحتويات هذه الزجاجة وتلك الكؤوس.

ـ اليوم؟...

ـ فوراً!...

ـ أي نوعٍ من الاختبارات؟... بماذا ترتاب؟...».

لم يشهد ميغريه من قبل ذُعراً قد يُلقي بظلّه الباهت على الأرجاء بمثل هذه السرعة. بضع ثوانٍ، ليس أكثر؛ فتبدد دفءُ النظراتِ من المآقي وبدا التورّدُ في خديّ لو بومّيري أشبه بلونٍ اصطناعي.

كانت الخادمة قد ارتفقت حافة صندوقها وراحت تدوّن بعض الأرقام، بعد أن تبلّل طرف قلمها الرصاص بلسانها، فوق مفكّرة ذات تجليد أسودٍ لامع.

«هل جُننتَ!...» حاول سرفيير أن يقول.

وبدت نبرته مصطنعة. وكان الطبيب قد حمل الزجاجة بيدٍ وباليدِ الأخرى احدى الكؤوس.

«مادة الاستركنين...»، همس الدكتور.

ودفع بالرجل الى الخارج ثمّ عادَ أدراجه مُطرقاً، شاحبَ السحنة.

«وما الذي يدفعك الى الاعتقاد...» همَّ ميغريه بسؤاله.

ـ لستُ أدري... مجـرّد مصـادفة... لقد لمحت ذرّة مسحوقٍ أبيض في كأسي... وبدت لي الرائحة غريبة بعض الشيء.

ـ إيحاء ذاتي جماعي!... أكّد الصحافي. يكفي أن انشر مثل

هذا الكلام في صحيفتين، غداً، حتى تقفل كل مقاهي الناحيةِ أبوابها.

«وهل تشربون الـ «برنو» عادةً؟...

ـ كلَّ مساء قبل طعام العشاء... وقد اعتادت إيمّا أن تقدّمه لنا ما أن ترى أكواب الجعة فارغة... فقد درجنا على بعض العادات الصغيرة... وبعد العشاء كأسٌ من الكالڤادوس...».

اقترب ميغريه من خزانة المشروب وأشار الى قنينة كالڤادوس

«لا، ليس هذا الصنف!... القارورة ذات البطن المكوّر.»

فأمسكها وخضّها قبالة الضوء ولح في سائلها ذرورَ مسحوقٍ أبيض. ولم يتفوّه بكلمة. لا حاجة به للكلام. فقد فهم الآخرون.

دخل المفتّش لوروا وأبلغه بنبرةٍ رتيبة:

لم يلحظ رجال الدرك ما يثيرُ الشبهات... لا غرباء يجوبون المنطقة... القضيّة غامضة ولا أحد يفهم...».

لقد أذهله الصمتُ المطبقُ على المكان، كأنَّ الصالة تغصُّ بمشاعر الجزع الخانق. كان دخانُ التبغِ يتمطّى حلقاتٍ غير مستوية حول اللمبات الكهربائية، وطاولة البلياردو تكشفُ عن غطائها الأخضر كأنّه بساط عشبٍ منتوف. بضعة أعقاب مطفأة على الأرض، وآثار بصقاتٍ هنا وهناكٍ وقد جبلت بنشارة الخشب.

«... سبعة وباليد واحد..» كانت إيمّا تعدّ ولا تني تبلّل طرف قلمها بلسانها...

ثمّ رفعت رأسها وصرخت في اتجاه الحجرة الداخلية:

«حالاً، يا سيّدتي!...».

كان ميغريه يحشو غليونه. ومكث الدكتور ميشو مُطرقاً يحدّقُ بثباتٍ في الأرض وبدا أنفه أكثر اعوجاجاً ممّا كان عليه في السابق. وكان حذاء لو بومّيري لامعاً كأنّه لم يُستخدم للسير بعد. أما جان سرفيير فكان يهزّ كتفيه بين الحين والآخر كأنّه يجادلُ نفسه.

استرعى الصيدليّ كافة الأنظار حين عاد حاملاً القنينة والكأس الفارغة.

جاء راكضاً. لاهثاً. وعندما وصل الى الباب، ركل بقدمه شيئاً ما لم يره أحد وغمغم قائلاً

«الكلب اللعين!...».

وما أن دخل الى المقهى:

«إنها دعابة، أليس كذلك؟... لم يشرب أحد منكم، أليس كذلك؟...

- إذاً؟

مادة الاستركنين، بلى!... لا بدّ انها دُسَّت في القنينة منذ نصف ساعة تقريباً...».

ونظر بشيء من الهلع الى الكؤوس الملآنة، وإلى الرجالِ الخمسةِ الذين لزموا الصمت.

«ما معنى كلّ هذا؟... أمر غريب!... من حقّي أن أعرف!... خلال الليل الماضي يُقتل شخصٌ في الجوار... واليوم...».

انتزع ميغريه القنينة من يده، وفي تلك الأثناء كانت إيمّا قد

عادت من الحجرة الداخلية، لا مبالية، وجلست خلف الصندوق حيث بدا وجهها المستطيل ذو العينين المتهجّجتين والشفتين المسترقّتين وشعرها المشعّث بعض الشيء تحت القبّعة البروتونية التي لا تني تنزلق لجهة اليسار فترفعها إيمّا في كلّ مرّة.

كان لو بومّيري يذرعُ الصالة جيئةً وذهاباً بخطواتٍ سريعة، مُستغرقاً في تأمُّل لمعان حذائهِ وانعكاساته. اما جان سرفيير، الذي مكثَ بلا حراك، محدّقاً في الكؤوس، فقد صرخ فجأةً بصوتٍ يهدّجه نحيبٌ مذعور:

«لعنةُ الله!...».

كان الذعرُ يستبدّ بالدكتور فانتحى جانباً.

-٢-

الدكتور منتعلاً خُفّيه

كان المفتّش لورروا في الخامسة والعشرين، ويشبه أن يكون شاباً حسنَ التربية أكثرَ منه مفتشاً في الشرطة.

كان لورروا حديث العهدِ في السلك. وكانت تلك مهمّته الأولى، مكث لبعض الوقت يراقبُ ميغـريه أسِفاً، وحاول مراراً أن يلفت انتباهه خِلسةً. وفي آخر الأمر أسرّ اليه بكثيرٍ من الخجل:

«أرجو المعذرة يا حضرة الكوميسير... ولكن... البصمات...».

فقد ظن، بلا ريب، أن رئيسه ينتمي الى المدرسة القديمة ويجهل قيمة التحريّات العلميّة، لأنّ ميغريه أجابه بين سحابتين من دخان غليونه:

«إذا شئتَ...».

على الأثـر توارى المفتش لورروا عن الأنـظار. فقد سارع الى القنينة والكؤوس وحملها الى غرفته، وانهمك طيلة الأمسية في صنعِ مغلّف نموذجي يُطابقُ لائحة التعليمات الرسميّة، لكي يتمكّن من ارسال الأدوات الجرميّة دون أن تُمحى البصمات عنها.

كان ميغرية قد انتحى ركناً من المقهى. وراح صاحبُ المحلّ، في

سترته البيضاء وطاقية الطبّاخ، يجيل عينيه في الأنحاء مذهولاً وكأنّ إعصاراً قد ضربه.

لقد تكلّم الصيدلي، ومن الخارج تناهت وشوشات وأحاديث. ثمّ نهض جان سرفيير واعتمر قبّعته.

«ليست نهاية العالم! فمن جهتي، لديّ زوجة، والسيّدة سرفيير تنتظرني!... إلى لقاءٍ قريب، يا حضرة الكومّيسير.. هل أنت باقٍ هنا يا ميشو؟...».

لم يجب الدكتور واكتفى بهزّ كتفيه. كان الصيدليّ يحرص على أن يحتفظ لنفسه بدور رئيس. وسمعه ميغريه يقولُ مخاطباً صاحب المقهى:

«... من الضروري، بالطبع، أن نعمد الى اجراء تحاليل على محتوى كافة القناني!... وبما أنّ الشرطة هنا، يكفي أن أتلقىّ من الكومّيسير الأمرَ الرسمي لأباشر الاجراءات...».

كان عدد القناني يفوق الستّين، بين أنواع المقبّلات والمشروبات المسكرة المختلفة.

«ما رأيك أيّها الكومّيسير؟...

ـ فكرة جيّدة... بلى، لمزيد الحيطة...».

كان الصيدليُّ قصيرَ القامة، نحيلاً وعصبيّاً. يُبدي من الانهماك والحركة أكثر ممّا يتطلبه الموقفُ بكثير. أحضروا له صندوقاً للقناني يسهل حمله. ثمّ اتصل بمقهى من مقاهي المدينة القديمة لكي يُستدعى وكيله التجاري لأنّه يريد أن يلقاه للضرورة القصوى.

لخمس أو ستّ مرّات تنقّل، حاسرَ الرأس، بين فندق «أميرال» وصيدليّته، متشاغلاً متعجّلاً، وبرغم ذلك كان يجدُ متّسعاً من الوقت، بين روحاته وغدواته، لتبادل أطراف الحديث مع بعض الفضوليين الذين تجمهروا على الرصيف.

«ماذا أفعل، أنا، إذا صادروا كلَّ قناني المشروب؟ قال صاحب المقهى. ولا أحد يريد أن يتناول طعام العشاء!... ألا تتناول طعام العشاء أيّها الكوميّسير؟... وأنت، يا دكتور... هل ستعود الى المنزل؟...

ـ لا... والدتي في باريس... والخادمة في إجازة..

ـ إذاً، ستمضي الليلة هنا...».

*

* *

كان المطرُ ينهمر بغزارة. وقد كستِ الشوارعَ مستنقعاتٌ من الوحلِ الأسود، والرياح تعصف بمصاريع الطبقة الأولى. كان ميغريه قد تناول عشاءه في صالة الطعام على مقربةٍ من الطاولة التي جلس اليها الدكتور مُغتمّاً.

وكانت تبدو، بين الحين والآخر، أخيلة الفضوليين عبر مربّعات الزجاج الأخضر وقد ألصقوا أنوفهم بالواجهات لمعرفةِ ما يجري في الداخل. تغيّبت خادمة المقهى لمدة نصف ساعة لتتعشّى بدورها ثمَّ عادت الى محلّها المعتاد الى يمين الصندوق وأسندت مرفقاً اليه أما الساعد الآخر فقد طوت فوقه فوطة.

«هل لي بزجاجة بيرة» قال ميغريه.

وانتابه احساسٌ شبه مؤكد بأن الدكتور كان يراقب كلَّ حركةٍ من حركاته، حين بدأ يحتسي البيرة، ثمَّ بعد ذلك، وبتمعّن، لمراقبة أعراض التسمّم المحتملة.

لم يعُدْ جان سرفيير الى المقهى. ولو بومّيري أيضاً. وهكذا خلا المقهى من روّاده لأن الناس يؤثِرون السلامة فامتنعوا عن الدخولِ وخصوصاً عن احتساء الشراب فيه. فقد كان الجميع يؤكّد في الخارج أنّ قناني الشراب مسمومة.

«ما يكفي لقتل أهل المدينة قاطبة!...».

اتصل العمدة من فيللا «السابل بلان» حيث يُقيم، للاطّلاع بدقّة على مجريات الآمور، ثمّ ساد الصمت المطبق. كان الدكتور ميشو في ركنه يقلّب صفحات الجرائد دون أن يقرأها. وكانت الخادمة واقفةً لا تحرّك ساكناً. وميغريه يدخّن بهدوء، وبين الحين والآخر، يدنو منه صاحب المقهى للاطمئنان، بنظرات فضول، إلا أن شيئاً لم يستجدّ بشأن الحادثة.

كانت دقّات جرس الساعة في المدينة القديمة تنطلق عند تمام الساعاتِ وأنصافها. وهدأت الدعسات والوشوشات في الخارج، ولم يبق إلّا صوت الرياح المُعوِل الرتيب، وجلبة الأمطار التي تنهمر على زجاج النوافذ

«هل ستمضي الليلة هنا؟» سأل ميغريه الدكتور.

وكان الصمت مطبقاً حتى بدا أنّ مجرّد الكلام بصوتٍ عالٍ من شأنه أن يحدثَ بلبلةً واضطراباً.

«أجل... يحدث لي أحياناً أن أمكث هنا... فأنا أقيمُ مع أمّي على

بَعد ثلاثة كيلومترات من المدينة... فيللا ضخمة... سافرت أمي الى باريس حيث ستمكث بضعة أيّام وطلبت مني الخادمة أن تذهب في اجازة لحضور زفاف شقيقها...».

ثمّ نهض، تردّد لثوانٍ، وقال بنبرة خاطفة:

«عمْ مساءً...».

وتوارى عندَ السلّم. ثمّ سُمعت جلبةُ سقوط حذائه على الأرضيّة، في الطبقة الأولى، وفوق رأس ميغريه بالضبط.. ولم يبق في المقهى سوى الخادمة والكوميسير.

«تعالي!» قال لها وقد أسند ظهره الى مسند الكرسي.

فدنت منه ومكثت واقفةً بشيءٍ من التصنُّع:

«اجلسي!... كم عمرك؟...

ـ أربع وعشرون سنة...».

كان في مظهرها ما ينمّ عن رضوخٍ مفرط ومتكلَّف. عيناها المتعبتان، طريقتها في الانتقال بين الأمكنة دون أدنى صوت، دون أن تمسّ شيئاً، طريقتها في الارتعاش توجّساً لأقلّ كلمة؛ باختصار، كان كلّ شيء في مظهرها وسلوكها يُطابقُ الانطباع الذي تولّده شخصيّةُ القذر الذي اعتاد كلَّ صنوف القَسوة. وبرغم ذلك، بدا له أنًّ تحت هذه المظاهر الخادعة هناك في شخصيّتها بعض مكامن الاعتزاز التي تحرصُ على اخفائها.

كانت شديدة النحول. وصدرها الصغير المُفلطح ليس من شأنه أن يوقظ في الروع أي احساسٍ بالإثارة. ومع ذلك، كانت تبدو

لخمس أو ستّ مرّات تنقّل، حاسرَ الراس، بين فندق «أميرال» وصيدليّته، متشاغلاً متعجّلاً، وبرغم ذلك كان يجدُ متّسعاً من الوقت، بين روحاته وغدواته، لتبادل أطراف الحديث مع بعض الفضوليين الذين تجمهروا على الرصيف.

«ماذا أفعل، أنا، إذا صادروا كلَّ قناني المشروب؟ قال صاحب المقهى. ولا أحد يريد أن يتناول طعام العشاء!... ألا تتناول طعام العشاء أيّها الكوميّسير؟... وأنت، يا دكتور... هل ستعود الى المنزل؟...

ـ لا... والدتي في باريس... والخادمة في إجازة..

ـ إذاً، ستمضي الليلة هنا...».

*

* *

كان المطرُ ينهمر بغزارة. وقد كستِ الشوارعَ مستنقعاتٌ من الوحلِ الأسود، والرياح تعصف بمصاريع الطبقة الأولى. كان ميغريه قد تناول عشاءه في صالة الطعام على مقربةٍ من الطاولة التي جلس اليها الدكتور مُغتمّاً.

وكانت تبدو، بين الحين والآخر، أخيلة الفضوليين عبر مربّعات الزجاج الأخضر وقد الصقوا أنوفهم بالواجهات لمعرفةِ ما يجري في الداخل. تغيّبت خادمة المقهى لمدة نصف ساعة لتتعشّى بدورها. ثمّ عادت الى محلّها المعتاد الى يمين الصندوق وأسندت مرفقاً اليه أما الساعد الآخر فقد طوت فوقه فوطة.

«هل لي بزجاجة بيرة» قال ميغريه.

ـ أجل... أحياناً... لقد اصطحبني مرّةً أو مرتين الى منزله في أيام عطلتي... وأوّل أمس أيضاً منتهزاً غياب والدته. ولكنْ لديه فتيات أخريات...

ـ والسيّد لو بومّيري؟...

ـ الحكـايـة نفسها .. سوى أني لم أذهب الى منزله إلّا مرّة واحدة، ومنذ بعض الوقت... والتقيت هناك احدى عاملات المسمكة و... لم أقبَل!... لديهم عاملات جديدات كلّ أسبوع...

ـ والسيّد سرفيير أيضاً؟...

ـ إنّ أمـره مختلف.. فهـو متـزوج... ويبـدو انّـه يذهب الى «بريست» للقيام بمثل هذه المغامرات العاطفية... أما هنا فيكتفي بالمداعبة والتلميح، ويقرصني كلّما مررت بقربه...».

كانت لا تزال تمطر. ومن بعيد يتناهى نعيق بوق الضباب الذي أطلقه مركبٌ يسعى لدخول المرفأ.

«وتدوم هذه الحالة طوال أيام السنة؟...

ـ لا، ليس طوال أيـام السنـة... خلال الشتـاء، يشعـرون بالوحدة... وأحياناً، فيما ندر، يحتسون زجاجة برفقة أحد التجّار الغـرباء... ولكنْ في فصل الصيف تكتظّ المدينة بالناس.. ويعجّ الفنـدق بالنـزلاء.. لذلك تراهم، عنـد المساء، جماعاتٍ، عشرة أو خمسة عشر شخصاً حول طاولة يحتسون الشمبانيا أو يقيمون الحفلات الراقصة في الفيلّلات الخاصة... في الصيف هناك كثير من السيّـارات والنسـاء الجميـلات... أما نحن فنكون مُنهمكين بالعمل... وبأية حال لستُ أنا من يقوم بخدمة الزبائن في فصل

الصيف، بل هناك خادم من الرجال... أما أنا فأكون في الأسفل لجلي الأواني...».

ما الذي تبحث عنه عيناها في الأرجاء؟ كانت تجلسُ على حافة الكرسي كأنها على أهبّة الاستعداد للنهوض في أيّةِ لحظة.

تناهى الى سمعها رنينٌ خافت. فنظرت الى ميغريه ثمَّ الى اللوحة الكهربائية المثبتة على الحائط خلف الصندوق.

«أتسمح لي؟...».

وصعدت. وسمع الكوميسير وقع خطوات ثمّ وشوشات مبهمة، في الطبقة الأولى، في غرفة الدكتور.

دخل الصيدليّ، ثملاً بعض الشيء.

«لقد أنجزت المهمّة يا حضرة الكوميسير! لقد قمت باختبارات على محتوى ثمانٍ وأربعين قنّينة! وأؤكّد لك، لا بل أقسم لك! ولم أجد أثراً للسمّ إلاّ في زجاجتي الـ«برنو» والكالفادوس... وليس على صاحب المقهى إلاّ أن يستعيد بضاعته... ولكن قُلْ لي، ما رأيك أنت؟ زمرة من الفوضويين، أليس كذلك؟..».

عادت إيمّا: ثم خرجت الى الشارع لتقفل الألواح الواقية وانتظرت قليلاً لكي يتسنى لها اغلاق الباب.

«إذاً؟...» قال ميغريه حين أصبحا وحيدين مجدّداً.

أشاحت بوجهها دون أن تجيب وبدت على ملامحها سيماء حشمةٍ مفاجئة. وشعر الكوميسير بأن أيّة محاولة للإلحاح أو الضغط عليها قد تدفعها الى البكاء.

«تصبحين على خير، يا ابنتي!...» قال.

*

* *

عندما نزل الكوميسير من غرفته بدا له أنه أوّل المستيقظين، لشدّة ما كانت السماء متلبدةً بالغيوم. كان قد راقب، من نافذته، الميناء المقفر حيث رافعة وحيدة تفرغ حمولة قاربٍ من الرمل. وفي الشوارع، بضع مظلاّت، وبضع مُشمّعات تلوذُ بحيطان المنازل هاربةً.

عند منتصف السلّم التقى تاجراً جوّالاً كان وصل لتوّه يتبعه حمّالٌ بالحقيبة.

كانت إيمّا تكنس أرضيّة الصالة. وعلى إحدى طاولات الرخام، كوبٌ ركدَ في قعره بعض تفل القهوة.

«إنه المفتّش؟ سأل ميغريه.

ـ لقد سألني منذ بعض الوقت كيف يستطيع الوصول الى المحطّة لارسال طردٍ كبير.

ـ والدكتور؟...

ـ لقد صعدتُ اليه بطعام الفطور... لأنه مريض.. وسيلازم الغرفة».

وواصلت المكنسة جمع الغبار الممزوج بنشارة الخشب.

«ماذا أُحضر لك؟

ـ قهوة...».

وكان عليها أن تمرّ بجواره لكي تذهب الى المطبخ. وعندئذٍ أمسك كتفيهـا بين يديه الضخمتين وحدّق مباشرةً في عينيها، بشيءٍ من الفظاظة والمودّة في وقت معاً.

«أخبريني إذاً، يا إيمّا...».

لم تحاول الافلات، بدرت منها حركة مقاومة خجولة ثمّ مكثت لا تحرّك ساكناً، مرتجفةً كأنها تودّ لو يتضاءل جسمها حتى التلاشي.

«بصراحة، ماذا تعرفين عن القضيّة؟... اصمتي!.. ستكذبين!.. لستِ سوى فتـاة صغـيرة بائسـة ولا رغبـة لي في أن أسبب لك المتاعب... انظري جيّداً اليّ!... والآن.. القنينة؟.. هيّا تكلمي.. الآن..

ـ أقسم لكَ..

ـ لا داعي للقَسَم...

ـ لستُ أنا الفاعلة!...

ـ أعلم جيّداً انّك لستِ الفاعلة بحقّ السماء! ولكن من هو الفاعل؟...».

انتفـخ جفنـاهـا فجأةً. وسالت الدموع على خدّيها. ارتجفت شفتها السفلى بحركة تشنّج ظاهرة وبدت فتاة الخدمة، على هذا النحو، مثيرةً للشفقة فأفلت ميغريه كتفيها.

«والدكتور.. الليلة المنصرمة؟...

ـ لا! لم يكن الأمر كما تظنّ...

ـ ولماذا استدعاكِ اليه؟

ـ لقد سألني كما تفعل انت الآن.. وهدّدني.. أراد أن يعرفَ مَنْ

دسَّ السمّ في القنينة... وكاد يضربني... وقلتُ له لا أعلم!.. أُقسمُ برحمةِ والدتي، أُقسم...

ـ أحضري لي قهوتي...».

كانت الساعة الثامنة صباحاً، ذهب ميغريه لشراء تبغ، وتجوّل في أنحاء المدينة. وعندما عاد الى الفندق، عند العاشرة تقريباً، كان الدكتور في المقهى، ينتعلُ خفّين وقد لفَّ وشاحاً حول عنقه. كانت قسماته مشدودةٌ وشعره الأصهب غير مسرّح.

«يبدو انكَ لستَ على ما يرام...

ـ أشعر بتوعك... كان ينبغي أن أتوقّع ذلك... وجع الكليتين... فما أن أتعرّض لأمر ما، تأثُّرٌ أو مجرّد انفعال حتّى تصيبني الأوجاع إيّاها... لم يغمض لي جفن طيلة الليل...».

كان يرمق الباب بنظراتٍ ثابتة.

«ألن تعود الى منزلك؟

ـ لا أحد هناك.. هنا أحظى برعايةٍ أفضل..»

كان طَلَب أن يؤتى له بكلّ صحف الصباح، فوضعت على طاولته.

«ألم ترَ أصدقائي؟... سرفيير؟... لو بومّيري؟.. من المستغرب فعلاً أنهم لم يهرعوا لمعرفة المستجدّات..

ـ دعكَ! لا شكّ أنّهما لم يغادرا الفراش بعد! قال ميغريه. ولكنْ! لم أرَ ذلك الكلب الأصفر الدميم... يا إيمّا!... هل رأيتِ الكلبَ؟.. لا؟... هوّذا لوروا، لربّما صادفه في الشارع. ما جديدك يا لوروا؟»...

ـ لقد أرسلت القارورتين والكؤوس الى المختبر.. وفي طريق عودتي عرّجت على المخفر والبلدية.. كنت تسأل عن الكلب، على ما أظنّ؟... يبدو أن أحد المزارعين قد شاهده هذا الصباح في حديقة منزل السيّد ميشو...

ـ في حديقة منزلي؟...

نهض الطبيب منتفضاً. وكانت يداه الشاحبتان ترتجفان.

«وماذا يفعل في حديقتي؟..

ـ قيل لي إنّه كان رابضاً على عتبة الفيللا وعندما حاول المزارع أن يقترب منه، راح ينخر بطريقة جعلت الرجل يبتعدُ هارباً...».

كان ميغريه يراقب الوجوه بطرف عينه.

«هلاّ ذهبنا معاً الى منزلك، يا دكتور؟...».

ابتسامة مُكرَهة.

ـ تحت مطر مماثل؟... ونوبة الوجع؟... يلزمني على الأقلّ ثمانية أيام من الراحة في الفراش. وما المهمّ في هذا الكلب!... انه، من دون شك، مجرّد كلب شارد...».

اعتمر ميغريه قبّعته وارتدى معطفه.

«إلى أين؟...

ـ لست أدري... لأتنشّق بعض الهواء.. هلاّ رافقتني يا لوروا؟».

وعندما أصبحا في الخارج كان لا يزال باستطاعتهما رؤية رأس الدكتور المستطيل والذي تضاعفُ الواجهة الزجاجيّة من تشوّهه

فيبدو أطوَلَ وتضفي عليه لون الإخضرار الباهت.

«إلى أين؟» سأل المفتّش.

فهزّ ميغريه كتفيه، سار على غير قصدٍ لمدّة ربع ساعة حول أحواض المرفأ كأنّه من هواة المراكب. وعندما وصل الى الرصيف، انعطف يُمنةً وسلك درباً أشارت اللافتة المعلّقة في أوّله الى أنه الدرب المفضي الى «السابل بلان».

«لو أننا سعينا الى تحليل رماد السيكارة الذي عُثر عليه في رواق المنزل الشاغر... شرع لوروا يقول بعد سَعْوَلة حَرَج.

ـ كيف وجدت إيمّا؟ قاطعه ميغريه.

ـ أ... أعتقد... أنّ الصعوبة، برأيي، وخصوصاً في منطقة مثل هذه، حيث الجميع يعرف الجميع، تكمنُ في الحصولِ على مثل هذه الكميّة من الإستركنين...

ـ لم أسألك بهذا الشأن... أنت، مثلاً، هل تقبل بأن تصبح عشيقها؟...».

لم يجد المفتّش المسكين ما يردّ به على السؤال. وأرغمه ميغريه على الوقوف وفتح طرفي معطفه لكي يُتاح له أن يُشعل غليونه بمنأىً عن الريح.

*

* *

يمتد شاطىء «السابل بلان» بين رأسين صخريين على بُعد ثلاثة كيلومترات من كونكارنو. ويحاذي هذا الشاطىء عددٌ من الفيللات

ومن بينها سَكنٌ شديد الفخامة يستحقّ اسم قصر ويملكه عمدة المدينة.

فيما وراء الشاطىء بدت مساحات من الأرض مرتفعةً بعض الشيء صخور مستطيلة متوجة بأشجار صنوبر، لكنّها شديدة التحدُّر لا تلبث أن تغور دعائمُها في مياه البحر.

لافتة كبيرة: «السابل بلان: أرض مفرزة». ثمّ خارطة وقد أشير عليها الى القطع المباعة وتلك المعروضة للبيع بلونين مختلفين.

ثم كُشْك من خشب: «مكتب بيع الأراضي».

وأخيراً هذه الملاحظة:

«في حال تغيّبنا، مراجعة السيّد أرنست ميشو، عضو مجلس إدارة».

لا بدّ أن كلّ هذا يكتسي حلّةً جديدة ومشرقة خلال فصل الصيف؛ أمّا في الشتاء، وكل هذه الأمطار والوحول، تصاحبها ضوضاء ارتداد الأمواج، فالأحرى أن المشهد بدا كئيباً.

في وسط هذه الأراضي المفرزة شيّدت فيلّلا حديثة، جدرانها من حجرٍ رمادي، ومن حولها فسحة مشرفة، وبركة مياه ورياض فسيحة لم تزهر بعد.

وخلفها، على مساحات متباعدة هياكل لفيللّات أخرى كانت لا تزال قيد الانشاء: بضعة جدران غير مكتملة ترسم حدود الحُجُرات...

كانت نوافذ الكشك بلا زجاج، فيما أكوام من الرمل جُمعت في

انتظار أن تُفرَش فوق الطريق الجديدة التي تعترضها محدلةٌ تُركت هناك. وعند قمّة الضفة الصخرية المرتفعة، فندق، أو بالأحرى، المبنى الذي سيُصبح فندقاً، وما زال قيد الانشاءِ بجدرانه البيضاء ونوافذه التي سُدَّت بألواح خشبٍ وكرتون.

تقدّم ميغريه على مهل ودفع بوّابة السياج التي تفضي الى فيللا الدكتور ميشو. وعندما وصل الى العتبة وهمَّ بامساك مقبض الباب، تمتم لوروا قائلاً:

«نحن لا نحمل مذكّرة تفتيش!... ألا تعتقد أنه...؟».

ومرّة أخرى هزَّ رئيسه كتفيه. كانت الممرّات حول الفيللا تحمل آثاراً واضحة لقوائم الكلب الأصفر. وكانت هناك آثار أخرى. آثار أقدام ضخمة تنتعل حذاءً بمسامير قياس ٤٦ على الأقلّ!

بَرَم المقبض. وفتح الباب كما لو بقدرة ساحر وبدت على السجّادة آثارٌ موحلة مماثلة: قوائم الكلب والحذاء الغريب.

كانت الفيلّلا ذات التصميم المعقَّد، قد أُثّثت على نسق الفخامةِ المتكلِّفة. عبارة عن مجموعة من الخلوات المُتحاذية، فرشت بالأرائك والمكتبات الواطئة، وخزائن على النسقِ البروتوني حوّلت إلى واجهات بالإضافة الى عددٍ من الاسكملاّت التركية أو الصينيّة. وأعداد كبيرة من السجاد والبُسُط والطنافس!

وبدا واضحاً أنّ القصدَ من هذا التصميم استخدام قطع الأثاث القديمة للإيحاء بأسلوب هو مزيج من الأسلوبين الريفيّ والحديث.

بضع لوحات لمناظر البروتانية. رسوم عُري، موقّعة تحت

الاهداء: «إلى الصديق الطيّب ميشو»... لا بل حملت احداها هذه العبارة: «إلى صديق الفنّانين»...

كان الكوميسّير ينظرُ الى هذه اللوحات بشيءٍ من التأفّف فيما بدا المفتّش لوروا مُعْجباً بتلك الأناقة المصطنعة.

وراح ميغريه يفتح الأبواب على التوالي ويلقي نظرات عاجلة على الغرف. بعضُها كان خالياً من الأثاث، وبدت جدرانها كأنَّ طلاءَها لم يجفّ بعد.

وفي آخـر المـطاف دفع باباً بإحدى قدميه وبدرت منه غمغمة عندما تبيّن له أنّه المطبخ. ورأى فوق طاولة من الخشب الأبيض، قنّينتين فارغتين من النبيذ الأحمر.

ولاحظ أن نحو دزّينة من علب الطعام المحفوظ قد فُتحت بفظاظة بواسطة سكين ما. وكانت الطاولة مُتسخةً دبقة. لقد إلتهم الفاعل طعـامـه مبـاشرةً من العلب، سمك رنكة بالنبيذ الأبيض، ويخنة الفاصوليا باردة، والفطر والبرقوق.

كانت الأرضيّة مبقّعة بالزيت وسوائل أخرى، وبقايا لحومٍ هنا وهناك. زجاجة شمبانيا مكسورة، فامتزجت رائحة الكحولِ بروائح الأطعمة.

رمق ميغريه رفيقه وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة غريبة.

«أو تعتقد يا لوروا أن الطبيب هو الذي أقام هذه المأدبة التي تليق بخنزير؟...».

ولمّا مكث الآخر، مصعوقاً، لا يَحارُ جواباً:

«ولا أمّه، على ما أظن!... ولا حتّى الخادمة!... انظر مثلاً، ما

دُمتَ تهوى البصمات... إنها آثار وحل تشبهُ شكلَ النعل... قياس ٤٥ أو ٤٦... وأثر قوائم الكلب!...».

حشا غليوناً آخر وتناول أعواد ثقابٍ عن أحد الرفوف.

«ارفع كلّ البصمات التي يمكن رفعها من هنا!... أحسبُ أنها ليست مهمة بسيطة... وإلى اللقاء!...».

وغادر سيراً، يداه في جيبيْ سترته وياقة المعطف مرفوعة تلفّ العنق، وقدماه تخوضان في رمال شاطىء «السابل بلان».

عندما دَلف الى ردهة فندق «أميرال»، كان أوّل ما رآه الدكتور ميشو، منتحياً إحدى الزوايا، منتعلاً خفّيه، نابت الذقن، وحول عنقهِ وشاح.

وكان لو بومّيري جالساً بقربه بأناقته المعهودة، ومكث الرجلان بلا حراك فيما الكوميسّير يتقدّم في اتجاههما.

ثمّ بادر الدكتور الى القول بصوتٍ متهدّج:

«هل تبلّغت النبأ؟... لقد فُقِدَ سرفيير... زوجته تكاد تُجنّ... لقد غادرنا أمس مساءً... ومنذ ذلك الحين لم يره أحد...».

انتفض ميغريه فجأةً. ولم تكن الرجّة التي انتابته متأتية مما قاله الدكتور، بل لأنّه لمح الكلب الأصفر، رابضاً عند قدميّ إيمّا.

-٣-

«الخوف يسود كونكارنو»

كان لو بومّيري، يُبدي الرغبة في التأكيد.

«لقد جاءت إليّ منذ قليل وطلبت متوسّلةً أن أبحث عنه... أنت تعلم أن سرفيير، واسمه الحقيقي غويار، صديق قديم. .».

كانت انظار ميغريه تجول متنقّلةً من الكلب الأصفر الى الباب الذي فُتح فجأة، إلى بائع الصحف الذي دخَل الى الصالة مُسرعاً، وأخيراً الى عنوان الصحيفة الرئيسي الذي بدا واضحاً من بُعْد

«الخوف يسود كونكارنو».

وتلته عناوين فرعيّة تقول:

«مأساة جديدة كلّ يوم».

«اختفاء زميلنا جان سرفيير».

«آثار دماء في سيّارته».

«مَنْ التالي؟».

استمهل ميغريه بائع الصحف ممسكاً بكمّه:

«هل بعت كَثيراً منها؟

ـ عشرة أضعاف ما أبيعه كلّ يوم. نحن ثلاثة باعة، انطلقنا من المحطة...».

وبعد أن أفلته ميغريه تابع الصبيّ ركضه على طول رصيف الميناء مُنادياً بأعلى صوته:

«لو فار دو بريست... عددٌ مثير..».

كان الكوميسّير يهمّ بقراءة المقال حين قالت إيمّا:

«اتصال هاتفي لك...».

صوت غاضب، إنّه العمدة:

«آلو، أيّها الكوميسّير، هل أنتَ مَنْ أوحى بهذا المقال الأحمق؟... حتّى أنني لم أُبلَغ بشيء!... من حقّي، أليس كذلك؟ أن أكون أوّل المطّلعين على ما يحدث في مدينتي!.. ما قصّة السيّارة؟... وهذا الرجل ذو القدمين الضخمتين؟.. لقد تلقّيت، في غضون نصف ساعة، أكثر من عشرين اتصالاً هاتفياً من قبل أناس مذعورين يسألون عن صحة هذه الأنباء.. أكرّر لك انني من الآن فصاعداً أريدُ...».

دون أن ينبس بكلمة أقفل ميغريه الخطّ وعادَ الى طاولته في المقهى وراح يقرأ. كان ميشو ولو بومّيري يقرآن في صحيفة واحدة فُردت فوق رخام الطاولة.

«إنّ زميلنا الصحافي الممتاز جان سرفيير قد دوّن على صفحات هذه الجريدة بالذات تفاصيل الأحداث التي كانت كونكارنو مؤخّراً مسرحاً لها. كان ذلك يوم الجمعة. مساء ذلك اليوم غادر أحد تجّار المدينة الموقّرين، السيّد موستاغين، فندق «أميرال»، وتوقف لثوانٍ

بمحاذاةِ عتبةٍ لإشعال سيكار فأصيب برصاصة في البطن أطلقت عبر صندوق البريد من داخل منزلٍ شاغر.

«يوم السبت وصل الكوميسًير ميغريه، الذي أُلحق حديثاً من شرطة باريس لقيادة مفرزة الأمن في رين، الى المدينة، إلاّ أن حضوره لم يَحُل دون وقوع مأساة جديدة.

«وفي مساء اليوم نفسه، أُبلغنا بواسطة اتصال هاتفي أن ثلاثة من وجهاء المدينة هم السادة لو بومّيري وجان سرفيير والدكتور ميشو، بالإضافة الى المحققين، قد لاحظوا خلال تناولهم شراباً مقبّلاً قبل العشاء، أن الـ «برنو» الذي قُدّم لهم يحتوي على جرعة كبيرة من الاستركنين.

«والحالُ أنه في صباح هذا الأحد عُثر على سيّارة سرفيير قرب نهر سان جاك ولم يُعثر على أي أثر لصاحبها الذي لم يشاهده أحد منذ مساء يوم السبت.

وتبيّن من الكشف أنّ المقعد الأمامي كان ملطخاً بالدماء، بالاضافة الى تحطُم إحدى المرايا، وهي دلائل تشير الى وقوع شجار بين الجناة وصاحب السيّارة.

«ثلاثة أيام: ثلاث جنايات! والملاحظ أنّ حالة من الذعر بدأت تسود كونكارنو التي راح سكّانها يتساءلون بقلق: تُرى من تكون الضحيّة التالية.

«وقد سادت أجواء البلبلة بين صفوف الأهلين بسببِ كلبٍ أصفر لا أحد يعرف من أين جاء ويبدو أنه كلب شارد، لا صَاحبَ له، ويُصادف أنه يُشاهَدُ قبيل أو بعد وقوع المأساة.

«ألم يرشد الكلبُ رجال الشرطة للإمساك بطرف خيطٍ جدّي في هذه القضيّـة؟ أليس البحثُ جاريـاً في هذه الأثنـاء للقبض على شخصٍ مجهول الهويّة لكنّه خلّف في مواضع مختلفة أثراً مثيراً للفضـول، وهـو عبـارة عن آثار أقدام أضخم بكثير من القياس الوسطي للأقدام عادةً؟

«مـجـنـون؟... مُتـسكّـع؟... من يكـون الذي ارتكب هذه الجرائم؟... ومن ستكون ضحيته هذا المساء؟...

«لا شك أنّه سيجد هذه المرّة من يقف في وجهه، ذلك أن سكان المدينة سيتخذون، لهلعهم، كلَّ الاحتياطات اللازمة وسيستخدمون السلاح ويطلقون النار عند أوّل بادرة خطر.

«وبـالانتـظار، تبدو المدينة، هذا الأحد، مقفرةً وتذكِّر الأجواء السائدة فيها بالمدن الشمالية أثناء الحرب عند الإعلان عن غارات جويّة وشيكة»

*

* *

نظر ميغريه عبر زجاج الواجهة. كان المطر قد توقّف منذ بعض الوقت، إلّا أن الشـوارع كانت مكسـوة بالوحل الأسود والرياح تواصل هبوبها. وكانت السماء أقرب الى اللون الرماديّ الكآبي.

كان بعض المارّة عائداً من قدّاس يوم الأحد. وبيدِ كلّ منهم، دون استثناء، عددٌ من صحيفة لو فار دو بريست. كانت كل الوجوه تلتفت نحو فندق «أميرال»، وما أن يمرّ العابرُ ببابه حتّى تراه يسرع الخطى مُبتعداً.

لا شكّ في أن المدينة كانت تشهد شيئاً من الركود. ولكن أليست هذه حالُها في صبيحة كلّ يوم أحد؟

رنّ جرس الهاتف مجدّداً. وسمع صوت إيمّا تقول:

«لست أدري، يا سيّدي.. لا أعلم شيئاً بهذا الشأن.. أتريد أن تتحدّث الى الكوميسّير؟... آلو!... آلو!... قطعت المخابرة.

ـ ما الأمر؟ سأل ميغريه.

ـ إنها إحدى الصحف الباريسية، على ما أعتقد .. يسألون عمّا إذا كان هناك ضحايا جدداً... وحجزوا غرفة في الفندق...

ـ هلاّ اتصلتِ بـ «لو فار دو بريست»».

وفي الانتظار راح يذرع أرض الصالة جيئةً وذهاباً، طولاً وعرضاً، دون أن يلتفت ولو مرّة واحدة نحو الدكتور المتهالك على كرسيه أو نحو لو بومّيري الذي كان مستغرقاً في تأمل الخواتم التي تزين أصابعه.

«آلو... لو فار دو بريست؟... يا كوميسّير ميغريه... المدير، لو سمحت! آلو!... حسنــاً! هلاّ قلت لي في أيــة ساعــة صدر عدد صحيفتك هذا الصباح؟... ماذا؟.. عند التاسعة والنصف؟... ومن كتب المقال حول جرائم كونكارنو؟... آه، لا! لا أريد أن أسمع هذا الهراء، أتسمعني!.. ماذا تقول؟... وصل المقال في ظرفٍ مختوم ومُقْفَل؟... من دون توقيع؟... وهل تنشر في صحيفتك أية معلومات مغفلة وغير موقّعة حين تصلك؟... تحيّاتي!...».

أراد أن يخرج من الباب المفضي مباشرةً الى رصيف الميناء ووجد أنّه موصد.

«ما معنى هذا؟ سأل إيمّا شاخصاً في عينيها.

ـ إنّه الدكتور...

تطلع نحو ميشو الذي بدا مطرقاً كما لم يكن من قبل، وهزّ كتفيه ثمّ خرج من الباب الآخر، باب الفندق الرئيسي. كانت معظم المتاجر مقفلة الأبواب. وكان الناسُ، في ملابس يوم الأحد، يسيرونَ في الشوارع مُسرعين.

وراء حوض المرفأ، حيث كانت المراكب تتماوج فوق المياه فتشد حبال مراسيها، لمَح ميغريه، في البعيد، مصبّ نهر سان جاك، عند طرف المدينة، حيث تُصبح بيوت السكن نادرة وتحلّ محلّها مشاغل لصنع المراكب واصلاحها. ولاحظ ميغريه أنّ بعض المراكب كانت لا تزال غير منجزة البناء على الرصيف فيما غرقت زوارق قديمة أخرى في مستنقعات الوحل وتعفّن خشبها.

عند الجسر الذي يعلو مصبّ النهر، وقف عددٌ من الفضوليين حول سيّارة صغيرة.

وكان عليه أن يدور دورةً كاملة قبل أن يصل لأن الأرصفة ممنوعة على المارّة بسبب الأشغال. وأدرك ميغريه من النظرات التي طالعه بها الناس أنّ الأهالي جميعهم باتوا يعرفونه. كما رأى أناساً يقفون عند أعتاب المحلات يتبادلون الأحاديث بأصواتٍ هامسة وقد بدت معالم القلق على وجوههم.

وصل أخيراً إلى السيّارة المهجورة عند حافة الطريق، وفتح الباب بشيء من الخشونة ونفض بعض نثار الزجاج المحطّم عن المقعد ولم يجد مشقّةً تُذكَر في العثور على البقع البنيّة التي تُلطخ قماش المقعد.

وسرعان ما تحلّق حوله عددٌ من الصبيةِ والفتيان الحشورين.

«منزل السيّد سرفيير؟...».

رافقـه عشرة منهم لإرشـاده الى موقـع المنزل. وكانَ على بُعد ثلاثمئـة متـر، منعزلاً بعض الشيء وبدا من الطراز البورجوازي مُحـاطاً بحديقة. توقفت ثلّة المرافقة عند باب السياج فيما تقدّم ميغريه وقرع الجرس فاستقبلته خادمة صغيرة ذات ملامح قلقة ورافقته الى الداخل.

«هل السيّدة سرفيير موجودة هنا؟».

وكانت الخادمة في الأثناء تفتح باب حجرة الطعام.

«قل لي أيها الكوميسّير!... أتعتقد أنّهم قتلوه؟ .. أكاد أُجنّ.. أكاد..».

كانت امرأة في الأربعين تبدو عليها ملامح الطيبة كما يليقُ بربّة منزل، وكانت نظافة الداخل وأناقته تؤكّدان مثل هذا الانطباع.

«متى رأيت زوجك لآخر مرّة...؟».

ـ لقد جاء مساء أمس لتناول طعام العشاء... ولاحظتُ أنه كان قلقاً منشغل البال، ولكنّه لم يشأ أن يخبرني ما به... وكان قد ركن السيارة أمام الباب.. فأدركتُ أنه سيغادر مجدّداً... وكنت أعلم انه سيعود الى مقهى «أميرال» ليلعب الورق وسألته إذا كان سيعود متأخّراً... عند العاشرة ذهبتُ لأنام... ولكني لم أستطع النوم .. سمعتُ دقّة الساعة الحادية عشرة، ثمّ الحادية عشرة ونصف... وخطر لي أن من عادته أن يعود الى المنزل في ساعاتٍ متأخّرة... وعندئذٍ لا بد أنني غفوت... استيقظتُ خلال الليل ولم أجده

بقربي، بدا لي الأمر مستغرباً في البداية... ولكن فيما بعد خطر لي أنّه ربّما ذهب الى بريست برفقة أحد أصدقائه... فالحياة هنا كئيبة بعض الشيء... ولذلك أحياناً... بعد ذلك لم أستطع النوم... ومنذ الخامسة صباحاً وقفتُ خلف النافذة أترقّب عودته... فهو لا يُحبّ أن يراني قلقةً بشأنه أو في انتظاره، كما لا يُحبّ أن أسأله عن أسباب تأخّره... عند التاسعة صباحاً هرعتُ الى منزل السيّد لو بومّيري... وفي طريق عودتي سلكتُ طريقاً مختلفة وعندها وجدتُ أناساً يتحلقون حول السيّارة... أخبرني! لماذا يريدون قتله؟... إنّه أفضل رجل عرفته... وأؤكّد لك أنّ لا أعداء له...».

ازداد عدد المتجمهرين أمام السياج.

«يبدو أنهم عثروا على آثار دماء.. لقد رأيت أناساً يقرأون الصحيفة ولكنّهم رفضوا جميعهم ان أطّلع عليها...

ـ هل كان زوجك يحمل مبلغاً كبيراً من المال؟...

ـ لا أعتقد... كالمعتاد!... ثلاث أو أربع مئة فرنك..».

وعَدَ ميغريه بأن يُطلعها على كلّ المستجدّات، لا بل حاول أن يهدىء من روعها بعبارات غامضة. كانت رائحة «الجيغو» تفوح من المطبخ. ورافقته الخادمة بمريولها الأبيض الى الباب.

وكان الكوميسّير لا يزال على بعد نحو مئة متر من منزل سرفيير حين دنا منه أحد المارّة وقال له باضطراب ظاهر:

«أرجو المعذرة، يا حضرة الكوميسير.. أقدّم لك نفسي، أنا السيّد دو جاردان، مدرّس... منذ ساعة تقريباً والناسُ يهرعون اليّ، وخاصةً أولياء تلاميذي، ويسألون عن صحّة ما ورد في

الصحيفة... ويريد بعضهم أن يعرف إذا كان يحق لهم استخدام السلاح إذا صادفوا الرجلَ ذو القدمين الضخمتين...».

لم يكن ميغريه رجلاً صبوراً طويل البال. فصرخ في وجه السائل وقد دسّ يديه في جيبي سترته بعنف.

«د...عني وشأني!».

وسلك الدرب المؤدي الى وسط المدينة.

إنّه غباء مطبق! إذا لم يشهد في حياته من قبل أمراً مماثلاً. كان ما يجري يذكّره بتلك العواصف التي تصوّرها أفلام السينما أحياناً. مشهد شارع تسوده البهجة، وسماء صافية زرقاء. ثمّ تتلبّد السماء فجأةً، بخدعة توليف سينمائي، وتحجب الغيومُ الشمسَ. وتهبُّ ريحٌ عاتية تكنسُ كلَّ ما في الشارع. إضاءة تميل الى الأخضر المزرقّ. ومصاريع تصطفق. زوابع غبار. وقطرات هائلة الحجم من المطر.

وإذا بالشارع تكتسحه مياه الشتاء المنهمر، وتعلوه سماءُ المأساة!

كان كلُّ شيء يتبدّل في كونكارنو وبسرعةٍ غير متوقعة. ولم يكن المقال الذي نشرته صحيفة لو فار دو بريست إلاّ نقطة البداية. فقد كانت الأحاديث والشائعات والتعليقات الشفهية تفوق الرواية المكتوبة اضطراباً وبلبلة.

وفضلاً عن ذلك كان يوم أحد! والناسُ في إجازة! ولذلك اختاروا أن تكون نزهاتهم المعتادة في جوار سيّارة جان سرفيير التي وضعت تحت حراسة شرطيّين. كان المتسكّعون يمكثون هناك ساعةً من

الزمن يصغون إلى شروحات من هم اكثر اطلاعاً.

وعندما عاد ميغريه الى فندق «أميرال» كانَ صاحب المحلّ ذو الطاقية البيضاء في ذروة توتّره العصبي، فتشبّث بكمّ معطفه وقال:

ـ يجب أن أتحدّث اليك، أيّها الكوميسير... إنَّ الوضع لا يُطاق...

ـ قبل كلّ شيء ستقدّم لي طعام الغداء...».

ـ ولكن...».

وانتحى ميغريه ركناً حيث جلس وقال حانقاً:

«كوباً من البيرة!... ألم ترَ المفتّش، مُساعدي؟ ..

ـ لقد غادر الفندق.. اعتقد أنّ العمدة استدعاه... لقد تلقينا اتصالاً آخر من باريس... صحيفة أخرى حجزت غرفتين لمراسلٍ ومصوّر...

ـ والدكتور؟

ـ فوق، في غرفته... وطلبَ منا أن لا ندع أحداً يصعد اليه...

والسيّد لو بومّيري؟...

ـ لقد غادر للتوّ».

وكان الكلب الأصفر قد غادر مكانه أيضاً. ولاحظ ميغريه أن عدداً من الفتيان قد جلسن الى طاولاتٍ متفرّقة، ومكثوا في مواضعهم كالمشاهدين، بياقاتهم المزيّنة بأزرار الورد وشعورهم المتيبسة بفعل الدهون، لا يشربون المرطّبات التي وُضعت أمامهم؛ جاؤوا كالمتفرّجين الذين يشعرون بالاعتزاز لأنهم امتلكوا مثل هذه الشجاعة

«تعالي يا إيمّا...».

كانت العلاقة بين الخادمة والكوميسّير علاقة تعاطف غريزي وودّ تلقائي. فاقتربت منه برضوخ تام وجلست الى جانبه.

«هل أنتِ واثقة من أنّ الدكتور لم يغادر الفندق هذه الليلة؟...

ـ أُقسم لك أني لم أنم في غرفته...

ـ إذاً، هل استطاع أن يخرج؟...

ـ لا أعتقد.. إنّه خائف... وهذا الصباح طلب مني أن أوصد الباب الذي يفضي الى رصيف الميناء...

ـ وكيف استطاع هذا الكلب الأصفر أن يألفك بسرعة؟

ـ لستُ أدري... لم أره من قبل... يأتي ثمّ يُغادر. وأسأل نفسي أحياناً إذا كان هناك من يُطعمه...

ـ وهل غادر منذ وقتٍ طويل؟...

ـ لم أنتبه...».

عاد المفتش لوروا حانقاً.

«أتعلم يا حضرة الكوميسّير أن العمدة غاضب جداً... والعمدة رجلٌ ذو شأن!... لقد قال لي انه ابن عم وزير العدل... ويزعم أننا نسكب زيتاً فوق النار، وأننا لم نُفلح حتّى الآن إلاّ بإثارة موجة من الذعر عمّت المدينة. ويريد أن نلقي القبض على شخصٍ ما، على أيٍّ كان، لطمأنة الأهالي... ووَعدتُ العمدة بأن أنقل إليك رغبته... وكرّر مراراً أنّ مستقبلنا المهني في خطر...».

راح ميغريه يُنظف غليونه برويةٍ وأناة.

«ماذا ستفعل؟

ـ لا شيء، على الاطلاق...

ـ ولكنْ...

ـ أنت لا تزال شابّاً يا لوروا! هل رفعت كلّ البصمات المريبة في فيللا الدكتور؟...

ـ لقد أرسلتها كلّها الى المختبر... الكؤوس، العلب الفارغة، السكين.. حتى أني صنعتُ قوالب من الجصّ لآثار أقدام الرجلِ وقوائم الكلب... ولقد تكبّدت مشقة كبيرة في ذلك لأن الجصّ المستخدم في هذه المنطقة رديء جداً... هل تكوّنت لديك أية فكرة حول القضيّة؟...».

لم يُجب ميغريه بل سحب مفكرةً من جيبه وأعطاها للمفتّش فقرأها وبدا أنّه لا يفهم الكثير ممّا جاء فيها:

«أرنست ميشو (الملقب بالدكتور) ـ ابن صناعيّ صغير من منطقة سين إي وان، انتخب نائباً في احدى الدورات ثمّ لم يلبث أن أعلن إفلاسه. توفي الأب. أمّا الأمّ فتبدو مثيرةً، مثيرة للشبهات. حاولت، بمساعدة ابنها، أن تستغلّ أرضاً مفرزة في جوان ليه بين. إخفاق تامّ. عاودت الكرّة في كونكارنو. وأسّست شركة مغفلة مستعينة برصيد زوجها المعنوي واسمه. لم تُسهم في الرساميل. وتحاول الآن أن تحظى بموافقة البلدية والمقاطعة على دفعِ تكاليف المنافع العامّة للأرض المفرزة.

«أرنست ميشو تزوّج ثمّ طلّق. وأصبحت مطلّقته زوجة كاتب عدل في مدينة «ليل».

«نمط الشخصيّة المنحلّة. استحقاقات صعبة المنال».

نظر المفتش الى رئيسه كأنّه يسأل.

«وماذا بعد؟».

فأشار ميغريه الى السطور التالية:

«إيف لو بومّيري ـ عائلة لو بومّيري. شقيقه أرثور يملك اضخم مصنع لعلب الطعام المحفوظ في كونكارنو. تنتمي الى طبقة النبلاء. وإيف لو بومّيري هو وسيم العائلة. لم يعمل في حياته. وبذّر، منذ وقت طويل، القسط الأوفر من ميراثه. انتقل الى كونكارنو واستقر فيها حين أصبح دخله السنوي لا يتجاوز العشرين ألف فرنك. إلّا أنه يبدو في مظهر وجيه لمواظبته على صبغ حذائه وتلميعه بنفسه. عدد من المغامرات العاطفية مع العاملات الصغيرات. وفضائح عديدة تمّ التكتّم بشأنها. يبحث عن رزقه في كافة قصور الناحية. أثمرت جهوده. واستطاع عبر علاقاته الكثيرة أن يحظى بتعيينه نائب قنصل الدانمارك. ويُعدّ العدّة للحصول على وسام جوقة الشرف. ويضغط أحياناً على أخيه لكي يسدّد له ديونه.

«جان سرفيير (الاسم المستعار لجان غويار) ـ مولود في موربيهان. عمل في الصحافة الباريسية لمدّة طويلة، وكذلك في ادارة بعض المسارح الصغيرة... الخ. حظيَ بميراثٍ متواضع وأقام في كونكارنو، تزوّج من امرأة كانت تعمل كموظفة في أحد المسارح بعد علاقة بها دامت خمسة عشر عاماً. بعض المغامرات العابرة في بريست ونانت. يعتاش من بعض الايرادات الصغيرة وليس من عمله في الصحافة الذي يعتزّ به شديد الاعتزاز. أوسمة أكاديميّة».

«لا أفهم! غمغم المفتّش.

ـ بحقّ السماء! أعطني دفتر ملاحظاتك...

ـ ولكن من قال لك...؟

ـ هيّا، هاته...».

كانت مفكرة الكوميسّير عبارة عن دفتر صغير رخيص، من ورق مربّـع ومغلّف بقماشٍ مشمّع. أمّا دفتر ملاحظات المفتش لوروا فكان عبارة عن مفكّرة كبيرة ذات أوراق منفصلة جُمعت بشريطٍ من فولاذ. وبالتفاتةٍ أبويّة راح ميغريه يقرأ:

«١ ـ قضيـة موستـاغـين: إن تاجـر النبيذ لم يكن المقصود بالرصـاصـة التي أصـابتـه. وبما أنه يَستحيل العلم سلفاً بأنّ شخصاً ما سيتوقف عند العتبة، فلا بدّ أنّ الشخص المعني كان على موعدٍ محدّدٍ سلفاً في المكان نفسه، إلّا أنه لم يأت، أو أتى بعد فوات الأوان.

«إلّا إذا كان الغرض من الحادثة ترويع الأهالي. فالجاني يعرف كونكارنو جيّداً جداً. (إغفال تحليل رماد السيكارة الذي عثر عليه في الرواق).

«٢ ـ قضية الـ «برنو» المسموم: خلال فصل الشتاء غالباً ما يكون مقهى «أميرال» خالياً من الروّاد طيلة النهار. فتمكّن شخصٌ ما، يعلم جيّداً أن المقهى خالٍ، من الدخول ودسّ السمّ في الشراب. في زجـاجتين. وهذا يعني أن المقصودَ هم الزبائن الذين اعتادوا شرب البرنو والكالفادوس. (مع العلم بأنّ الدكتور قد لاحظ دون مشقة وفي الوقت المناسب بقايا المسحوق الأبيض في السائل).

«٣ ـ قضيّة الكلب الأصفر: يعرف مقهى «أميرال»، وله صاحب. ولكن من؟ يبدو في الخامسة من عمره على الأقلّ.

«٤ ـ قضيّة سرفيير: التحقق، عبر تدقيق خبراء الخطوط من هويّة مرسل المقال الى صحيفة لو فار دو بريست.

ابتسم ميغريه، وأعاد المفكّرة الى رفيقه وقال:

«أحسنت، يا بنيّ...».

ثمّ أردف قائلاً وقد نظر بشيءٍ من العياء الى أطياف الفضوليين الذين يحتشدون خلف واجهة الزجاج:

«هيا بنا نأكل!».

وبعد ذلك بقليل، كان الكوميسير ورفيقه وحيدين في الصالة الى جانب التاجر الجوّال الذي قَدم في الصباح، فجاءت إيمّا لإبلاغهما بأنّ حالة الدكتور تزداد سوءاً، وقد طلب منها أن ترسل وجبةً خفيفة الى غرفته.

*

* *

خلال فترة ما بعد الظهر، تحوّل مقهى «أميرال» بواجهاته الداكنة الى قفصٍ أشبه بأقفاص حديقة الحيوان، حيثُ يتحلّق متنزّهو يوم الأحد بنظراتهم الفضوليّة، ثمّ يتابعون طريقهم في اتجاه أعلى المرفأ، حيث كانت سيّارة سرفيير قبلة الفضوليين الثانية التي يحرسها شرطيان.

اتصل العمدة ثلاث مرّات من فيللته الفخمة في «السابل بلان».

«هل ألقيت القبض على أحد ما؟...».

وكان ميغريه يُجيبه بالنفي كأنّ التحدّث اليه مشقّة ليست في احتماله. وكانت الشبيبة، بين سن الثامنة عشرة والخامسة والعشرين، تتوافدُ الى المقهى جماعاتٍ صاخبة فتحتلُّ ركناً ما ويؤتى لها بما تطلبه من مرطّبات دون أن يتربها أحد.

كانت اندفاعة الفتيان الأولى لا تدوم أكثر من خمس دقائق، ثمَّ سرعان ما يسود المكانَ احساسٌ بالضيق فتخفت الأصوات الشاكسة وتُكتمُ الضحكات ثمَّ تخبو. ولا يبقى إلّا أن يغادروا، واحدهم تلو الآخر الى غير رجعة.

وبدا الفرقُ واضحاً حين أضيئت المصابيح. كانت الساعة الرابعة بعد الظهر ومن عادة الناس ان يتريّثوا في نزهاتهم وتجوالهم.

أمّا مساء ذلك اليوم فقد كانت الشوارع مقفرةً والصمت موحشاً. كأنّ المتنزهين تناقلوا كلمة السر. وفي غضون ربع ساعة كانت الشوارع تقفر وحين يتناهى وقع أقدام فإنّما لعابرين يحثُّون الخُطى توجّساً، مسرعينَ الى بيوتهم الآمنة.

كانت إيمّا تسند مرفقيها الى حافة الصندوق. أمّا صاحب المحل فكان يتنقل بين مطبخه والمقهى حيث أصرّ ميغريه على عدم الاصغاء لتظلّماته.

نحو الرابعة والنصف، نزل أرنست ميشو من غرفته، منتعلاً خفَيه. وكانت لحيته نابتة ووشاحه الكْرِيمْ الحرير مبلّلاً بالعرق.

«هل أنت هنا أيّها الكوميسير؟...».

إذ بدا أن وجود الكوميسير يجعله مطمئناً.

ـ والمفتش المعاون؟..

ـ لقد أوفدته في جولةٍ...

ـ والكلب؟

ـ لم يره أحد منذ هذا الصباح...».

كانت الأرض تبـدو رمـاديـة، ورخام الطاولات أبيض مطعماً شعيراتٍ زرقاء. ومن خلال الواجهة الزجاجية بدت ساعة البلدة القديمة تشير الى الخامسة إلّا عشر دقائق.

«ألم يُعرف بعدُ كاتبُ هذا المقال؟...».

كانت الصحيفة على الطاولة، وبدا أنّ العيون باتت تغفل كلَّ العناوين فيها باستثناء كلمتين:

«مَنْ التـالي؟».

رنّ جرس الهاتف، فأجابت إيمّا:

«لا.. لا شيء.. لستُ أدري...

ـ مَنْ؟ استعلم ميغريه.

ـ صحيفة باريسية أخرى... يبدو أنّ المراسلين يصلون تباعاً...».

ولم تكمل عبارتها حتى رنّ جرس الهاتف مجدّداً.

«المخابرة لك، أيّها الكوميسّير...».

بدا الدكتور شاحباً لا تفارقُ عيناه ميغريه.

«آلو!... مَنْ؟...

ـ لوروا... أنا في المدينة القديمة، قرب مجرى المياه.. لقد سُمِعَ إطلاق نار... يبدو أنّه اسكافيّ وقد رأى من نافذته الكلب الأصفر...

ـ مات؟...

ـ أُصيب بجروح! في ظهره... يبدو عاجزاً عن الزحف.. ولا يجرؤ أحدٌ على الاقتراب منه... الكلبُ طريح الأرض في وسط الشارع، أراه عبر واجهة المقهى حيث أجري اتصالي هذا.. الكلب يُطلقُ عواءً مُرّاً... ماذا أفعل؟...».

كانت نبرة المفتّش الذي حاول جاهداً أن يتكلّم بصوتٍ هادىء، تفضح ارتباكه وقلقه وكأنّ الكلب الأصفر الجريح كائنٌ ذو قدراتٍ تفوق الطبيعة.

«النوافذ في المنطقة تغصُّ بالناس... قلّ لي، يا حضرة الكوميسير، هل نجهز عليه؟...

كان الدكتور يقف خلف ميغريه، ووجهه يزدادُ شحوباً، ويسأل بشيء من الخجل:

«ما الأمر؟.. ماذا يقول؟...».

ورأى الكوميسير إيمّا تسندُ مرفقيها الى حافة الصندوق، ساهيةً ترمقُ الجمع بنظراتٍ غائمة.

- ٤ -

سرية المرافقة

عَبَـر ميغريه فوق الجسر المتحرّك واجتاز خطَّ الأسوار وسلك شارعاً مُتعرّجاً ومُعتماً بعض الشيء. إنّ الحيّ القديم الذي تزنّره الأســوار ويسميــه أهل كونكارنو المدينة المغلقة، هو أكثر أحياء المدينة اكتظاظاً بالسكان.

ومع ذلك كان الكوميسّير يتوغّل فيه، وكلّما أمعن في توغّله طالعه صمتٌ مريبٌ يطبقُ على الانحــاء. صمتُ جمهــرةٍ مشدوهة حيال مشهدٍ ما، جمهرة ترتعد إمّا خوفاً وإمّا تشوّقاً لرؤية المزيد.

بضعة أصوات ارتفعت من هنا أو هناك لمراهقين متفاخرين.

منعــطف آخــر وأصبح الكوميسّير قبالة المشهد: زقاق ضيّق، وأناسٌ كثُرٌ يطلّون من كلّ النوافذ. غرف مضاءة بمصابيح النفط وأسرّة بادية للعيان. ثمّ جمهرةٌ من المحتشدين تسدّ الطريق، وقبالة هذه الجمهرة مساحة مقفرة تتصاعد منها أصوات حشرجة.

فَرَق ميغـريه المتفرّجين، ومعظمهم من الفتيان، الذين فوجئوا بمجيئه. وكان اثنان منهم يواصلان رجم الكلب بالحجارة. فحاول رفاقهما تدارك غيّهما. وسُمعتْ، أو الأحرى هُمِسَتْ كلمة تحذير:

«حذار!...».

وكان أحدُ الراجمين يحمرّ خجلاً عندما همّ ميغريه بدفعه الى الناحية اليسرى متابعاً تقدّمه نحو الكلب الجريح. وعندئذٍ رانَ صمتٌ من نوعٍ آخر. فالواضح أنَّ نشوةً شاذة كانت تمتلّك المتفرّجين خلال اللحظات السابقة، باستثناء امرأة عجوز راحت تصرخ من النافذة:

«إنّه أمرٌ مخزٍ!... يجب أن تسوقهم الى المحكمة أيّها الكوميسّير!... لقد احتشدوا هنا للتشفّي من هذا الكلب المسكين... وأنا أعلمُ جيداً لماذا يفعلون!... لأنهم يخافونه...».

كان الإسكافيّ الذي أطلق النار قد توارى داخل دكّانه خجلاً. انحنى ميغريه ليداعب رأس الكلب الذي رمقه بنظراتِ تعجُّبٌ لم تصبح نظرات عرفانٍ جميلٍ بعد. خرج المفتّش لوروا من المقهى حيث أجرى الاتصال الهاتفي. فيما ابتعدَ بعضُ المحتشدين على مضض.

«فليحضر أحدكم عربة يد..».

كانت النوافذ تُغلقُ واحدةً تلو الأخرى، إلّا أنَّ أخيلة فضولية مَكَثت خلفَ الستائر تراقب خلسةً. كان الكلبُ وسخاً وفروته الخشنة ملطّخة بالدماء. وكان بطنهُ موحلاً وخطمُه جافاً ومحموماً. وبدا مُطمئناً لليد التي جاءت لترعاه، فكفّ عن محاولاته اليائسة للزحفِ على بلاط الشارع حيث تبعثرت الحجارة التي رُجِمَ بها.

«إلى أين نحمله يا كوميسّير؟...

- إلى الفندق... برفق... ضعوا قشّاً في قعر العربة...»

كان لمثل ذلك الموكب أن يبدو مثيراً للسخرية. إلّا أنّه بدا مؤثراً

لما أضفاه عليه جو الهلع الذي سادَ المدينة منذ الصباح. وانطلقت العــربــة يجرّها رجل عجوز، تتبعها القرقعة التي يُحدثها ارتطام عجلتها ببلاط الشارع، ثمّ ابتعدت عبر منعطفات الزقاق واجتازت الجسر المتحرّك ولم يجرؤ أحد على اللحاقِ بها. كان صوت أنفاس الكلب مسموعاً مُتلاحقاً، وقد تصلّبتَ قوائمه الأربع بفعل التشنجات.

لَمح ميغريه سيّارة، لم يكن قد لاحظ وجودها من قبل، قبالة فندق «أميرال». وعندما فتح باب المقهى لاحظ أن أجواءه قد تبدّلت كليّاً.

انـدفع نحوه رجل فكاد يوقعه أرضاً، ثمّ امتدت سواعد لرفع الكلب، ثمَّ آلة التصــويــر وومضة الفلاش. رجل آخر، في بنطالِ غولف وصدريّة صوف، دنا منه رافعاً كسكيته وبدا في يده دفتر ملاحظات.

«الكوميسّير ميغريه؟... فاسكو، من صحيفة «جورنال...» لقد وصلتُ للتوّ واستطعت، لحسن الحظ، أن ألتقي السيِّد...».

وأشار بيده الى ميشو الجالس في رُكنِه وقد أسندَ ظهره الى مسندِ المقعد المكسوّ بقماشٍ زاغب.

«إن سيّارة الـ «بوتي باريزيان» تتبعنا... لكنّها تعرّضت لبعض الأعطال على بعد عشرةِ كيلومترات...».

وكانت إيمّا تسأل الكوميسّير.

« أين نضعه؟

ـ أما من مكانٍ له في الدار؟

ـ بلى... قرب الفناء الخارجي... ثمة كوخ صغير توضع فيه عادةً القناني الفارغة...

ـ لوروا!... أسرع في طلب طبيب بيطري...».

لساعة خلت كان المكان مقفراً يُطبق عليه صمت التحوّط والحذر. أما بعد مجيء الصحافة والمصور الذي يرتدي معطفاً واقياً للمطر فقد بُدّل الصمتُ ضوضاءً وصراخاً من كل صوبٍ:

«مهلاً... امكثوا كما أنتم، لو سمحتم... أديروا رأس الكلبِ من هذه الناحية...».

فيتوالى وميض المغنيسيوم.

«أين لو بومّيري؟ سأل ميغريه مخاطباً الدكتور.

ـ لقد غادر الفندق بعد أن غادرت أنت بقليل... لقد اتصل العمدة مرّة أخرى... وأعتقد انه في طريقه الينا...».

*

* *

عند التاسعة مساءً بدا المقهى أشبه بمقرٍ لقيادة العمليات. فقد وصل مراسلان آخران، وكان أحدهم يدبّج مقاله على طاولةٍ في آخر الصالة. ومن حين لآخر ينزل مصوّر من غرفته.

«ألديكم كحول ٩٠°؟ أحتاجها فوراً لتحميض الأفلام... إن الكلب مدهش!... أهناك صيدلية في الجوار؟... مقفلة؟.. ليسَ مهمّاً...».

وفي الرواق، حيث يوجد هاتف، كان أحد الصحافيين يملي مقاله بصوت رتيب:

«ميغريه، بلى... م مثل موريس... أ مثل إيزيدور.. أجل... دوّن كلّ الأسماء دفعةً واحدة... ميشو... م.. ي.. شو مثل شو.. مثل شو بروكسيــل... لا، ليس مثــل بو... مهــلاً... سأنصّ عليــك العناوين... ستصدر على «الصفحة الأولى»؟... بلى! قل للمدير إنّه ينبغي أن تصدر على الصفحة الأولى...».

كان المفتّش لوروا، في غمرة ارتباكه حيال الازدحام والضوضاء، يبحث عن ميغريه بعينيه كمن يبحث عن خشبة خلاص. وفي ركن آخر كان التاجر الجوّال الوحيد من بين نزلاء الفندق يُهيىء لجولةِ يوم الغد استناداً الى «دليل بوتان للمقاطعات». ومن وقت لآخر كان ينادي إيمّا متسائلاً.

«شو فييه... هل هو متجر خردواتٍ كبير؟ شكراً...».

كان الطبيب البيــطري قد استخرج الرصاصة وضمّدَ مؤخّرة الكلب بضمّادات مشدودة بإحكام.

«هذه الحيوانات كم تكابدُ القسوةَ في حياتها!...».

ثمّ عمد أحدهم الى بسطِ غطاءٍ عتيق فوق كومة من القشّ فُرِشت فوق البـلاط الغـرانيتي الأزرق لأرضيــة الكوخ الذي يفضي من الجانبين الى الفناء الخارجي وإلى سلّم القبو. ووضع الكلب وحيداً فوق فراشه المرتجل وعلى بعد عشرة سنتيمترات من خطمه المحموم قطعة لم يمسها.

ثمّ وصل العمدة في سيّارة. عجوز متأنّق ذو لحية صغيرة بيضاء

وحركاتٍ خاطفة. وفور وصوله بدا مقطباً إذ طالعه ازدحام المقهى بسرية كاملة من الأنفار الذين تدافعوا نحوه كأنهم حرسه الخاص.

«من هم هؤلاء السادة؟

ـ صحافيون من باريس...».

فبدا متمالكاً غضبه وقال:

«رائع! بحيث تصدر الصحف غداً في كلّ أنحاء فرنسا وقد ضمّنت صفحتها الأولى شتّى الروايات حول هذه القضيّة التافهة!... ألم تتوصل الى أي شيء بعدُ؟...».

ـ التحريات مستمرة!» أجاب ميغريه بلهجة من يودّ أن يقول: «ليس هذا من شأنك!».

ذلك أن مشاعر الغضب المكتوم كان تسودُ الأجواء. وكلٌّ واحدٍ منهم يتمالك فورة غضبهِ الوشيكة.

«وأنت، يا ميشو، ألن تعود الى منزلك؟...».

كانت نظرات العمدة زاخرةً بمشاعر الاحتقار وتتهم الدكتور بالجبن.

«إذا تفاقم الوضع على هذا النحو فإنّ حالة من الهلع ستعمّ المدينة في غضون أربع وعشرين ساعة... وكان الحلّ في متناول أيدينا؛ لقد قلت لك، ينبغي أن تلقي القبض على أحدٍ ما، على أيٍّ كان...».

وأرفق عبارته الأخيرة بالتفاتةٍ نحو إيمّا.

«أعلم جيّداً أنّك لست مُرغماً على تلقي أوامرَ مني... وأمّا

الشرطة المحليّة فلم تدع لها إلاّ هامش تَحّرك لا يُذكر... ولكني أقول لك التالي: حادثة أخرى، حادثة واحدة، وستحلّ الكارثة... فالناس يتوقّعون حدوث شيء ما... والمحالّ التي تفتح أبوابها عادةً حتى التاسعة مساءً قد أقفلت أبوابها... لقد أثار مقال «لو فار دو بريست» حالةً من الذعر في أوساط الأهلين...».

لم ينزع العمدة قبّعته المستديرة عن رأسه لا بل كان يُثبتها بيده حين غادر مخاطباً الكوميسّير بلهجة التوصية الرسمية:

«أكون شاكراً لك إن أبقيتني على اطلاع، أيها الكوميسّير. وأذكّر بأن كلّ ما يجري الآن إنما يجري على مسؤوليتك الخاصة...».

- «كوب بيرة، يا إيمّا!» طلب ميغريه.

لم يكن في مستطاع أحد أن يمنع الصحافيين من الإقامة في فندق «أميرال» أو ارتياد المقهى أو إجراء الاتصالات الهاتفية، وأن يتلافى انهماكهم الصاخب الذي ضجّ به المكان. كانوا دائماً في حاجةٍ لمزيدٍ من الحبر والأوراق، ويلحّون بالأسئلة التي يطرحونها على إيمّا فتطالعهم بوجهها البائس المذعور.

وفي الخارج كان يسودُ ليلٌ مدلهمّ يخترقه بصيصُ قمر لا يُضيءُ بل يُبرِز المسحة الرومانسيّة في سماءٍ لبّدتها الغيوم الداكنة. وتلك الأوحال التي تلطّخ كلّ الأحذية، ذلك أن كونكارنو لم تكن قد شهدت بَعْدُ عصر الشوارع المبلّطة!

«هل قال لك لو بومّيري أنه سيعود لاحقاً؟ سأل ميغريه مخاطباً ميشو.

- أجل، لقد ذهب لتناول طعام العشاء في منزله...

- عنوانه؟...» سأل أحد الصحافيين.

فأعطاه الدكتور العنوان، فيما هز الكوميسير كتفيه وانتحى جانباً برفقة لوروا.

- ألديك النصّ الأصلي لمقال هذا الصباح؟...

- لقد وصلني للتوّ.. إنه في غرفتي... لقد كتب النصّ باليد اليسرى وهذا يعني أن كاتبه كان يخشى افتضاح أمره...

- لا أثر للطوابع البريدية؟

- لا! لقد وضعت الرسالة باليد في صندوق بريد الجريدة.. وعلى المغلف كُتِبتْ عبارة وحيدة: «عاجل جداً».

- هذا يعني أن كاتب المقال كان يعلم، ومنذ الثامنة صباحاً على أبعد تقدير، أن جان سرفيير مفقود وأن السيارة قد عثر عليها أو سيعثر عليها قرب نهر سان جاك وأن مَنْ سيعثر عليها سيلاحظ بقع الدماء على المقعد... وكاتب المقال المجهول لا يجهل، فضلاً عن ذلك، أنّه سيتمّ اكتشاف آثار أقدام المجهول الضخمة في مكانٍ ما في الجوار..

- غير معقول!... تنهّد المفتش. لقد أرسلت ما توفّر من بصمات الى «الكيه دو رفيفر» بواسطة الصور التلغرافية. وهناك دققوا في الملفّات. ووصلني الجواب: إنها لا تتطابق مع أي ملفّ من ملفّات أصحاب السوابق...».

كان الأمرُ واضحاً، لا يرقى اليه الشكّ: لقد بدأ مناخ الخوف السائد يتسرّبُ الى كيان لوروا. إلّا أن أكثر المصابين بهذه الجرثومة

خوفاً، إذا جازت العبارة، فقد كان أرنست ميشو الذي بدا شاحباً هزيلاً على عكس ما كان الصحافيون يبدونه من خفة وانهماك وثقة.

كان حائراً لا يعرفُ أين يجلس. فسأله ميغريه:

ـ ألا تريد أن تنام؟...

ـ لا، ليس بعد... فأنا لا أنام عادةً قبل الواحدة بعد منتصف الليل...».

وكان يبذلُ ما في وسعه لكي يبادل الكوميسّير ابتسامةَ لا مبالاة لكنه أخفق وتكشّفت شفتاه عن سنّين ذهبيّتين.

«قل بصراحة، ما رأيك؟».

دقّت ساعة البلدة القديمة المضاءة دقّاتها العشر. واستدعي الكوميسّير للردّ على اتصال هاتفي من العمدة.

«لا شيء بعد؟...».

وهل كان العمدة يتوقّع حادثةً أخرى؟

ولكنّ، صدْقاً، ألم يكن ميغريه نفسه يتوقّع حدوث شيء ما؟ تقدّم نحو الكلب مطرقاً عنيداً، وكان هذا الأخير رابضاً واهنَ القوى، ففتح عيناً وحيدة يراقب دنوّه منه. داعب الكوميسّير رأسه ودسّ حفنةً من القش تحت قائمتيه.

ثمّ لمح صاحب المحلّ واقفاً وراءه.

«هل تعتقد أن هؤلاء السادة سيمكثون طويلاً هنا؟... ففي مثل هذه الحال ينبغي أن أتدبّر ما يكفي من المؤونة.... والسوق غداً عند السادسة صباحاً.

من يجهل ميغريه، في مثل هذه المواقف، يظلّ حائراً إذ يرى عينيه جاحظتين شاخصتين في جبينه دون أن ترياه، ثمّ يسمع غمغمة لا يفهم منها شيئاً فيما يبتعدُ الكوميسّير كأنّ محدّثه ليس أكثر من كمٍّ لا حساب له.

عاد مراسل الـ«بوتي باريزيان» وراح ينفض مشمّعه الذي يقطر ماءً.

«عجباً!... أتمطر؟... ما جديدك يا غرولين؟...».

كانت حدقتا الفتى تتوقدان بالتماعة غريبة وهمس ببضع كلمات في أذن المصور الذي يرافقه ثمّ رفع سمّاعة الهاتف

«بوتي باريزيان، يا آنسة... مكتب الخدمات الصحافية... الأولوية!... ماذا؟ أنت على الخطّ مباشرةً مع باريس؟... إذاً، بسرعة.. آلو!... آلو... لو بوتي باريزيان؟.. الآنسة جرمين؟... صليني بالسكرتيرة المناوبة... أنا غرولين!».

كان صوته ينمّ عن التلهف والاستعجال. وبدت نظراته وكأنها تتحدّى زملاءه الذين أصغوا اليه. ودنا منه ميغريه ليصغي بدوره.

«آلو!... أهذه أنت يا آنسة جان؟ عليك بالاسراع، أتسمعين!:... ما زال لدينا الوقت الكافي لبضع طبعات في المناطق.. أمّا الصحف الأخرى فستنتظر طبعة باريس... أطلبي من سكرتير التحرير أن يكتب المقال.. أما أنا فلم يتسع وقتي لكتابته...

قضية كونكارنو... لقد كانت توقعاتنا صحيحة... جريمة أخرى.. آلو! أجل، جريمة!... لقد قُتل رجلٌ، إذا شئت...».

سكت الجميع. وكان الدكتور وقد ارتسمت على وجهه معالم

الذهـول يدنـو من الصحـافي الذي تابع كلامه شديد الحماسة متفاخراً ومزهواً:

«بعـد السيد موستاغين، وبعد الصحافي جان سرفيير، السيّد لو بومّيري!... أجل... لقد هجّيت لك اسمه منذ قليل.. لقد عُثِر عليـه مقتـولاً في غرفتـه.... في منزله!،، لا أثر لأي جرح... بدت عضلات جسمه متصلبة.. مما يدعو الى الظن بأنه قتل مسموماً... مهـلاً... فليُختم المقال بعبارة: «الذعر يسود...» أجل!... اذهبي فوراً الى سكرتير التحرير... وسأملي عليك بعد قليل مقالة لطبعة باريس، ولكن طبعات المناطق يجب أن تتضمّن هذا الخبر...».

وأقفل الخطّ ـ وراح يمسح جبينه الذي تصبّب عرقاً ويتلفت من حوله بنظرات ابتهاج وحبور.

رن جرس الهاتف.

«آلو!... الكوميسّير؟... نحاول الاتصال بك منذ ربع ساعة... هنا منزل السيّد لو بومّيري... تعالَ حالاً!... لقد مات! ..

وردّد الصوتُ بنَواحٍ:

«مات...».

تلفّت ميغريه من حوله، ورأى أنّ هناك كؤوساً فارغة على كافّة الطاولات. وكانت إيمّا تراقب الشرطيّ وقد امتقع وجهها.

«لا يمسّ أحـدُ منكم أي كأس أو زجـاجـة! قال بلهجة أمر. أسمعتني يا لوروا؟... أمكث أنت هنا...».

كان الدكتـور يتصبّب عرقـاً ونزع وشاحه فبدا عنقه النحيل وياقة قميصة المزرّرة.

*

* *

عندما وصل ميغريه الى شقة لو بومّيري كان طبيب من الجوار قد كشفَ على الجثة ودوّن ملاحظاته الأولية.

والتقى هناك امرأةً خمسينية هي مالكة العمارة التي بادرت الى الاتصال لإبلاغه بالأمر.

كان المنزلُ جميلاً شيّدت جدرانه من الحجارة الدكناء، ويشرف على البحر. وكانت أضواء المنارة تضيءُ نوافذه كلّ عشرين ثانية.

شرفة، وسارية بيرق وترس نقش عليه شعار دولة الدانمارك.

كانت الجثة ممدّدةً فوق سجادة حمراء تكسو أرضيّة الغرفة الصغيرة المليئة بالأواني المزخرفة الرخيصة. وفي الخارج صادف الكوميسّير خمسة أشخاص اكتفوا بالنظر اليه حين مرّ بمحاذاتهم إلاّ أنهم مكثوا صامتين.

على الجـدران علّقت بعض الصور لممثلات شهيرات، وبضعة رسوم قُصّت من مجلاّت الأزياء ووضعت في أطر، وبعض الصور التي تحمل تواقيع صاحباتها.

كان قميص لو بومّيري ممزّقاً والوحلُ يُغَطّي نعليه.

«استركنين! قال الطبيب. او في الأقلّ أرجّح ان يكون... انظر الى عينيه... وخصوصاً حالة التصلّب في جسمه.. لقد دام احتضاره أكثر من نصف ساعة.. وربّما أكثر بكثير...

ـ أين كنتِ في تلك الأثناء؟ سأل ميغريه المالكة.

ـ في الطابق السفلي... لقد استأجر لو بومّيري الطبقة الأولى من المنزل، على أن يتناول وجبات طعامه عندي... عاد الى المنزل لتناول طعام العشاء نحو الثامنة. ولم يأكل شيئاً تقريباً... أذكر أنه قال إن الاضاءة ضعيفة في الوقت الذي كانت فيه المصابيح الكهربائية ساطعة بأضوائها المعتادة...

«قال لي إنّه سيخرج بعد العشاء إلّا أنه يحتاج لقرص أسبيرين إذ يشعر بأن رأسه ثقيل بعض الشيء...».

ورمق الكوميسّير الطبيب بنظراتِ استفهام.

«بالضبط... إنّها الأعراض الأولى...

ـ كم يستغرق ظهورها بعد تناول السمّ؟...

ـ بحسب الجرعة وبنية الجسم... أحياناً تستغرق نصف ساعة.. وأحياناً أخرى ساعتين...

ـ ومتى تحدث الوفاة؟...

ـ لا تحدث الوفاة إلّا إثر شلَلٍ تام.. ولكن قبل ذلك هناك الشلَل الموضعي... ولذلك على الأرجح أنّه كان يحاول الاستغاثة... فقد كان مُستلقياً على الكنبة...».

الكنبة إيّاها التي تيّمناً بها أطلق على منزل لو بومّيري اسم «دارة الرذيلة». فقد كانت رسوم النساء أكثر عدداً حول الكنبة، فيما علّقت فوقها نوّاصة صغيرة تشيعُ جواً من الأنوار الزهريّة الخافتة.

«لقد أصابه اضطراب عضلي، كما في نوبةِ هذيان(*) ... فوقع أرضاً وقضى نحبه هناك...».

دنا ميغريه من الباب حين رأى مصوّراً يحاول الدخول، وأغلقه في وجهه.

وراح يتمتم:

«لقد غادر لو بومّيري مقهى «أميرال» بعد السابعة بقليل.. وشرب مُسّكراً ممزوجاً بالماء... وبعد ربع ساعة شرب وأكل هنا... واستناداً الى أقوالك حول أعراض التسمّم بالاستركنين فمن المحتمل أن يكون تناول السمّ في المقهى أو في المنزل...».

وهبط على الفور الى الطبقة الأرضية، حيث كانت المالكة تنتحب وقد تحلّقت حولها ثلاث من جاراتها.

«الصحون والكؤوس التي استخدمت خلال العشاء؟...».

بدت حائرة لبعض الوقتِ لم تفهم سؤاله. وعندما همّت بالإجابة كان ميغريه قد لمَحَ في المطبخ وعاءً مليئاً بالمياه الساخنة وإلى يمينه وضعت الأطباق النظيفة وإلى يساره الأطباق المتسخة والكؤوس.

«لقد كنت منهمكةً بغسل الأطباق عندما...».

وصل رقيب من رجال الشرطة المحليين.

«احرسوا البيت. أخرجوا منه الجميع باستثناء المالكة.. ولا تسمحوا لأي صحافي أو مصور بالاقتراب منه!... ولا يمسّ أحد منكم أي طبق أو أي كأس...».

(*) Delirium tremens.

كان عليه أن يقطع خمسمئة متر من الدروب الوعرة للوصول الى الفندق. وكانت المدينة غارقة في الظلام، إذ لم يرَ سوى نافذتين مضاءتين أو ثلاثٍ وبينها مسافات طويلة.

عند الساحة، بقرب زاوية الرصيف، كانت واجهات فندق «أميرال» الثلاث مضاءةً إلّا أن لون الزجاج المائل للاخضرار كان يجعل المبنى أشبه بأكواريوم عملاق.

وحين اقترب ميغريه منه تناهى الى سمعه ضجيج الأصوات وجرس الهاتف، وهدير سيّارة على وشك الانطلاق.

«إلى أين؟» سأل ميغريه.

كان يُخاطب أحد الصحافيين.

«الخط مشغول! سأتصلُ من مكانٍ آخر... فبعد عشر دقائق بالضبط تفوتني طبعة باريس...».

كان المفتش لوروا واقفاً في وسط المقهى مثل ناظرٍ في قاعة الدرس المسائي. أحد الصحافيين لا يتوقّف عن الكتابة. أمّا التاجر الجوّال فبدا مذهولاً إلّا أنه لا يخفي اهتمامه بهذه الأجواء التي لم يشهد مثلها من قبل.

الكؤوس ما زالت على الطاولات. كؤوس المشروبات الطويلة المثيرة للشهية وأكواب الجعة والأقداح.

«في أية ساعة جمعت الكؤوس عن الطاولات؟..».

حاولت إيمّا أن تتذكّر.

«لا أستطيع القول انها جمعت في ساعة محدّدة. فهناك كؤوس

جمعت بعد الفراغ من احتسائها مباشرةً وهناك أخرى ما زالت على الطاولات منذ فترة ما بعد الظهر...

ـ وكأس السيّد لو بومّيري؟...

ـ ماذا شربَ، يا سيّد ميشو؟...

أجابها ميغريه:

ـ شراباً مسكراً ممزوجاً بالماء...».

دقّقت في الفواتير واحدةً تلو الأخرى.

«ستة فرنكات... ولكني قدّمت كأساً من الوسكي لهؤلاء السادة وسعر الوسكي ستة فرنكات أيضاً... ربما كانت هذه الكأس؟ وربما لا..».

كان المصوّر لا يهدر دقيقة واحدة من وقته، فراح يصوّر كلّ هذه الكؤوس الزجاجيّة المتسخة التي تزيّن طاولات الرخام

«إذهب في طلب الصيدلي!» قال الكوميسّير مخاطباً لوروا.

وكانت تلك الليلة ليلة الكؤوس والأطباق بالفعل. فقد أحضر بعضها من منزل نائب قنصل الدانمارك. وكان الصحافيون يدخلون الى مختبر الصيدلي بلا أدنى حرج وراح احدهم، وهو تلميذ سابق في كلية الطب، يشارك في اجراء الاختبارات.

واكتفى العمدة في اتصاله الهاتفي بالقول:

«.. إنها مسؤوليتك...».

ولم يُعثر على شيء. وبالمقابل جاء صاحب المحلّ وسأل بغتةً:

«ما الذي جرى للكلب؟...».

فقد كان الكوخ فارغاً. وهكذا تبيّن أن الكلب الأصفر العاجز عن السير أو الزحف بسبب الضمّادات التي تلفّ مؤخرته، قد اختفى.

ولم تسفر نتائج الاختبارات عن أي شيء.

«قد يكون كأس لو بومّيري من بين تلك الكؤوس التي جمعت وغُسلت... لست أدري.. ما عدتُ أدري.. في غمرة هذا الازدحام!...».

وكذلك الأمر في منزل نائب القنصل، فقد غسلت المالكة نصف الأطباق والكؤوس بالماءِ الساخن.

وكان أرنست ميشو يُبدي قَلقاً ظاهراً لاختفاء الكلب.

«لقد جاؤوا من ناحية الفناء الخارجي! فهناك باب يفضي الى رصيف الميناء، نوع من الطريق المسدود... يجب أن يُقفل الباب نهائياً أيّها الكوميسير. وإلاّ... تخيّل أنهم أفلحوا في الدخول دون أن يلحظهم أحد!... وغادروا بعد أن اختطفوا الكلب!».

بدا الدكتور متوجّساً لا يبارح ركنه عند طرف الصالة الداخلي كأنّه يحاول أن يمكثَ، ما بوسعه، بعيداً عن الأبواب.

-٥-

متشرّد كابيلو

كانت الساعة الثامنة صباحاً. وكان ميغريه الذي لم ينم طيلة الليل قد استحمّ وينهي حلاقة ذقنه قبالة مرآة علّقها على مزلاج النافذة.

وكان الطقسُ أشدُّ برودةً من الأيام التي سبقت، ومياه المطر العكـرة أشبـه بثلوج ذائبة. أحد المراسلين وقف عند المدخل في انتـظار وصـول الصحف البـاريسيـة. لقد سمعت صفّارة قطار السـابعة والنصف ولن يلبث باعة الطبعات المثيرة أن يتراكضوا صـارخين بالعناوين العريضة.

كانت السوق التي تقامُ أسبوعيّاً في الساحة على مقربةٍ فراح الكوميسّير يتأمّل الازدحام فيها. إلّا أنها أقلّ ازدحاماً من المعتاد ويحـرص النـاسُ على التحـدّث بأصوات خافتة. وبدا المزارعون الوافـدون من خارج المـدينة أقرب الى التوجُّس والقلق حيال ما يبلغهم من أنباء.

نحـو خمسـين مفرشاً خشبياً توزّعت مساحة السهلة، وعليها البضائع المختلفة: أكوام من الزبدة والبيض والخضار والقمصان الداخليـة وجوارب النايلون. وإلى الجهة اليمنى، عربات من كلّ الأجناس رُكِنت جانباً: اما المشهد الغالب فكان طواف الطاقيات

البيضاء ذوات الدانتيللا العريضة.

لم ينتبه ميغريه الى حقيقة ما يجري إلّا عندما لاحظ بلبلةً في ناحيـة من السوق حيث تجمهر الناس وراحوا ينظرون الى جهة واحـدة. كانت النـافذة مغلقة. كان لا يسمع جلبة الأصوات بل تتناهى الى مسامعه أصداء ضوضاء مُبهمة.

نظرَ الى أبعَدْ، ناحيـة المـرفأ فرأى بضعة صيّادين يحمّلون زوارقهم بالشبـاك والسـلال الفـارغـة. إلّا أنّهم توقفـوا فجـأةً. واصطفّوا يراقبون عبور شرطيين يسوقان سجيناً الى مبنى البلديّة.

كان أحـد الشرطيـين فتيّـاً لم تنبت لحيته بعد، وتبدو سيماء السذاجة على وجهه. أما الآخر فله شاربان كثيفان تميل سمرتـهما الى الإحمرار، وحاجبان مقطبان يُضفيان على سحنته بعض مظاهر المهابة والرهبة.

كفّت الأحاديث والمساومات في السوق. كانت العيون شاخصةً ترمق الرجال الثلاثة؛ وراح البعض يُشير الى الأصفاد في معصمي الشقيّ.

رجـل ضخم الجثة! كان يمشي منحنياً الى الأمام فتبدو كتفاه أعرض مرتين. يجرّ قدميه مخوّضاً في الوحلِ كأنّه هو من يسوقُ الشرطيين.

كان يرتدي سترةً عتيقة لا طَراز لها. حاسِرَ الرأسِ كأنّ شعره أشواك خشنة شديدة السمرة.

هرع الصحـافي على السلّم وراح يطرق باب احـدى الغـرف صارخاً ينادي مصوّره النائم:

«بنوا!... بنوا!... أسرع! انهض... إنه موضوع صورة مذهلة...».

وكان المشهدُ أكثر من مذهل. فما كاد ميغريه يمسح عن وجهه بقـايـا الصابون ويتناول سترته دون أن يحيد ببصره عن منظر الساحة، حتى حدث فعلاً ما يمكن وصفه بالمذهل.

تحلّق المحتشدون حول الشرطيين وسجينهما. وبحركة مفاجئة انتهز هذا الأخير فرصةً كان ينتظرها، فنتر معصميه بقوة.

من بعيد رأى الكوميسّير طرف السلسلة المقطوعة في يدِ الشرطي، فيما انقضّ الرجلُ على المحتشدين. وقعت امرأة، وهرب آخرون. سلك الرجلُ ممرّاً مسدوداً على بعدِ عشرين متراً من فندق «أميرال» وبمحـاذاة المنـزل الشـاغر الذي انطلقت رصاصة من صندوقه البريدي يوم الجمعة الفائت.

كاد أحد الشرطيين ـ أصغرهما ـ أن يطلق النار، تردّد قليلاً ثمّ جرى في أثر الهارب ممسكاً سلاحه بيده. وتداعت سقيفة خشبية بفعل تدافع الهاربين وانهار سقفها فوق أكوام الزبدة.

تجرأ الشرطي الشاب على التوغّل بمفرده في الممر المسدود. أما ميغريه الذي يعرف الناحية جيّداً فقد ارتدى سترته دون استعجال.

لقـد بات القبض على الشقيّ أمراً أقرب الى الأعجوبة. فالممرّ الضيق الذي يبلغ عرضه المترين ينعطفُ في موضعين. وثمة منافذ عبر الممرّ لأكثر من عشرين بيتاً تفضي الى الساحة أو الى رصيف الميناء. وبالاضافةِ اليها عَددٌ من المستودعات والمتاجر المتخصّصة

في بيع الحبال وأدوات الصيد ولوازم المراكب، ومستودع للمعلّبات، وركام من المباني والزوايا والمنعطفات والسطوح الواطئة، مما يجعل من أي مطاردةٍ عبثاً لا طائل فيه.

*

* *

بعد ذلك بنصفِ ساعة وصل العمدة الذي سبقه بدقائق قليلة آمر فصيلة الدرك وأعطى أوامره بأن ينتشر رجاله لتفتيش المنازل المجاورة.

وعندما دخل الى المقهى ووجد ميغريه جالساً الى إحدى الطاولات بصحبة الشرطيّ الشاب يلتهم الخبزَ المحمّص، ارتعد زعيم المدينة من الغيظ.

«لقد حذرتك، أيّها الكوميسّير، وأحمّلك المسؤولية الكاملة عن... عن.. ولكنّك لا تبالي!... سأرسل برقيةً الى وزارة الداخلية لإبلاغ المسؤولين بما.. بما.. وأطلب منهم. . ولكن، هل شاهدتَ ما يجري في الخارج؟.. الناسُ يهجرون بيوتهم خوفاً... وثمة رجلٌ عجوز مقعد يولول ذعراً لأنّه لا يستطيع مغادرة شقّته في الطبقة الثانية... ويتراءى لهم الشقيّ في كل مكان....».

استدار ميغريه قليلاً فرأى أرنست ميشو يقفُ، كطفل خائف، مُلتصقاً به كأنه لا يريد أن يكون لجسمه حجم وشكل أكثر من حجمِ الطيف وشكله.

«ستلاحظ أن الشرطة المحليّة أي مجرّد دركيين عاديين، ستفلح في القبض على المجرم، فيما...

ـ أما زلت تريدني أن ألقي القبض على أحدٍ ما؟

ـ ماذا تقصد؟... أتزعم أن الفارّ في متناول يدك؟...

ـ لقد طلبت مني يوم أمس أن ألقي القبض على أحدٍ ما، على أيٍّ كان...».

كان الصحافيون في الخارج يساعدون رجال الشرطة في عمليات التفتيش. وكان المقهى خالياً تقريباً تسوده الفوضى لأن الوقت لم يتسع بعد لتنظيفه: رائحة تبغ شديدة تزكم الأنوف، وأعقاب سكائر وبقايا بصاق ونشارة وكسور زجاج.

وفي تلك الأثناء كان الكوميسّير يسحبُ من محفظته مذكّرة اعتقال بيضاء.

«كلمة منك يا سيدي العمدة و...

ـ لقد أثرت فضولي لمعرفة هوية الشخص الذي ستقبض عليه!...

ـ إيمّا!... هاتِ ريشةً ومحبرة، لو سمحتِ...».

كان يدخن غليونه بنفثات قصيرة. وسمع العمدة يُغمغم بكلمات يريدها مسموعة:

«إنها خدعة!...».

إلّا أنّ كلام العمدة لم يثنه عن عزمه فكتب بأحرف كبيرة متلاصقة على جاري عادته:

«... المدعو أرنست ميشو... مدير شركة ليه سابل بلان العقارية...».

*

* *

بدا الأمر مضحكاً بدل أن يكون مأساوياً. وكان العمدة يقرأ ما يسطّره مقلوباً. وقال ميغريه:

«قضي الأمر! ما دمتَ مصرّاً، أُلقي القبض على الدكتور...».

رمقهما الدكتور وبدرت منه ابتسامة صفراء كالحائر الذي لا يدري بماذا يردّ على دعابة سمجة. إلّا أن الكوميسير كان يراقبُ ردود فعل إيمّا التي كانت تسير نحو الصندوق واستدارت فجأةً، أقل شحوباً مما تكون عليه عادةً، وقد سرت في أوصالها رعشة ابتهاج.

«أحسب يا حضرة الكوميسير، أنّك تعي تماماً خطورة ما...

- إنها مهنتي، يا حضرة العمدة.

- وجلّ ما تفعله، بعد كل الذي جرى، هو أن تأمر باعتقال أحد أصدقائي... لا بل أحد رفاقي.. أو الأحرى، أحد وجهاء كونكارنو، أحد الرجال الذي...

- ألديكم سجون مريحة؟...».

كان ميشو في الأثناء مُنهمكاً بالجفاف الذي أطبق على حلقه.

- ليس لدينا، في ما عدا مركز الشرطة في مبنى البلدية، سوى مخفر الدرك في البلدة القديمة...».

كان المفتش لوروا قد وصل لتوّه حين فاجأه ميغريه بقوله:

«هيّا يا صديقي! هلّا تكرّمت باعتقال الدكتور وسوقه الى مخفر الدرك... بتكتم!... وليس من الضروري أن تضع الأصفاد في يديه... ستضعه في الحجز على أن تسهر على راحته الكاملة...

- إنه جنون مطبق! تمتم الدكتور، أكاد لا أفهم شيئاً... أنا...

إنه أمر غير مقبول!... لا بل أمرٌ مخزٍ!...

ـ بحق السماء» غمغم ميغريه.

وقال مخاطباً العمدة:

«لا أعارض استمرار البحث عن المتشرّد الفار... فسيجد الأهالي في هذه المطاردة السلوى الملائمة... وفي آخر الأمر ربّما كانت مفيدة... ولكن لا تعوّل كثيراً على أهميّة اعتقاله... حاول أن تطمئن الناس...

ـ ألا تعلم أنه ضُبط بحوزته سكينٌ ذو فُرضة لحظة القبض عليه هذا الصباح؟؟...

ـ مُحتمل...».

بدا ميغريه وقد عيل صبره. كان واقفاً يُنظف قبّعته المستديرة بطرف كمّه وقد ارتدى معطفه الثقيل ذو الياقة المخمليّة.

«إلى اللقاء القريب، يا حضرة العمدة... سأطلعك على المستجدات... نصيحة أخرى: احرص على عدم تسريب الروايات المختلفة الى الصحافيين... فالحقيقة أنّ كلّ هذا لا يعني بشيء... هلّا رافقتني؟...».

كانت عبارته الأخيرة موجّهة الى الرقيب الشاب الذي أسقط في يده فنظر الى العمدة كمن يقول:

«أرجو المعذرة... لكنّي مرغمٌ على ذلك...».

كان المفتش لوروا يرمقُ الدكتور حائراً كأنّه كُلّفَ بمعالجة عبءٍ مُربك.

وشوهد ميغريه يُربّتُ على خدّ إيمّا حين مرّ بمحاذاتها، ثمّ اجتاز الساحة غيرَ مبالٍ بفضولِ الناس.

«من هنا؟..

ـ أجل.. يجب أن نقوم بدورة كاملة حول الأحواض... لدينا نصف ساعة...».

كان الصيّادون أقلّ انهماكاً بما يدور حول مقهى «أميرال»، ولذلك انتهزت بعض المراكب فرصة الهدوءِ النسبي، لتتسلّ ببطءٍ خارج المرفأ ثمّ تنشر قلوعها نحو عرض البحر.

لم يكفّ الدركي الشاب عن النظرالى ميغريه بنظرات تلميذ مجتهد يحرص على انتزاع إعجاب أستاذه.

«أوتدري... لقد كان السيّد العمدة والدكتور يلعبان الورق سويّاً مرتين على الأقلّ في الأسبوع... ولا بدّ أن مذكّرة اعتقاله قد هزّت...

ـ ما الروايات التي يتناقلها أهل المنطقة بهذا الشأن؟...

ـ بحسب فئات الناس... الناس العاديون، العمال والصيّادون لا يكترثون كثيراً لما يحدث... لا بل يمكن القول انهم مسرورون لما يحدث... لأن الدكتور والسيّد لو بومّيري والسيد سرفيير لا يتمتعون بسمعةٍ طيّبة.. فقد كانوا.. طبعاً لا يجرؤ أحد على القولِ صراحةً... إلّا أنّ هذا لا يلغي الحقيقة.. والحقيقة أنهم أفرطوا بعض الشيء في الإساءة.. أنت تعلم.. في إغوائهم كلّ الفتيات العاملات.. وخلال فصل الصيف تزداد الأمور سوءاً إذ ينضم اليهم أصدقاؤهم من باريس... فيمضون أوقاتهم في احتساء المسكرات ويملأون الشوارع صخباً حتّى ساعات متأخرة من الليل، وكأنّ المدينة

بأسرها ملكٌ لهم... لقد وصلنا عدد من الشكاوى.. وخاصّةً حول سلوك السيد لو بوميّري الذي لا يستطيع أن يلمح تنّورة دون أن يهتاج... إنه أمر محزن.. ولكن المصانع ما عادت تعمل كسابق عهدها... وهناك بطالة... لذلك يسهل إغواء الفتيات بالمال...

ـ إذاً، من يكترث للأمر؟..

ـ الآخرون!... الفئات البورجوازية!. . والتجّار الذين خالطوا هذه المجموعة في مقهى «أميرال»... فقد كان المقهى أشبه بالملتقى الذي تجتمع فيه المدينة، أليس كذلك؟ حتّى العمدة كان من روّاده..».

بدا الشرطي الشاب فخوراً لاهتمام ميغريه بما يقوله.

«أين أصبحنا؟

ـ لقد تجاوزنا حدود المدينة... ومن هنا يبدأ امتداد الشاطىء غير المأهول تقريباً... ولن تجد هناك إلّا الصخور، وغابات التنوّب وبضع فيللات يأتي الباريسيّون للإقامة فيها خلال فصل الصيف... وهذا ما نطلق عليه اسم: رأس الكابيلو...

ـ وما الذي دفعكم للبحث في هذه النواحي...

ـ عندما كلّفتنا، زميلي وأنا، بالبحث عن متشرّد قد يكون صاحب الكلب الأصفر، بدأنا بالبحث بين المراكب القديمة في الجهة الخلفية من الميناء... إذ نعثر هناك بين حين وآخر على أحد المتسكعين الذين لا مأوى لهم... وفي العام الماضي شبّ حريق في أحد المراكب لأنّ متشرّداً أضرم ناراً بجواره اتقاءً للبرد...

ـ ولم تعثرا على شيء؟

ـ لا شيء... ولكنَّ زميلي تذكّر مركز الحراسة المهجور في كابيلو... فقصدناه... إنّه هناك، أترى هذا البناء المربّع من الحجر المنحوت، فوق الكتلة الصخـريّة المتقدّمة؟... يعود تاريخ بنائها الى العصر الذي شيّدت فيه كلّ تحصينات البلدة القديمة.. اتبعني من هنا.. واحذر القمامة... منذ زمن بعيد كان يقيم في هذا المبنى حارسٌ، أو بالأحـرى مُراقب ليـلي، تقتصر مهمّتـه على مراقبة عبور المراكب والإبلاغ عنها... فمن هناك يتسع مدى الرؤية وبإمكان الناظر أن يرى مضيق غلينان، وهو المضيق الوحيد الذي يفضي الى الميناء... إلّا أن مبنى الحراسة لم يُستخدم منذ أكثر من خمسين عاماً...».

اجتاز ميغريه ممرّاً انتُزعَ بابه ودخلَ الى حجرة أرضيّتها من الطين الجاف. في الجدار المطلّ على البحر لاحظ ميغريه عدداً من الكُوى التي يبدو منها البحر على اتساعه، أما الجدار المقابل فليس فيه سوى نافذة وحيدة وقد انتُزع إطارها.

ولاحـظ عدداً من الكتـابـات المحفورة بالسكين على الجدران الحجريّة. أمّا الأرضيّة فقد غطّتها الأوراق المتسخة والفضلات من كلّ نوع.

«كما ترى!... لقد أقام رجل في المكان طيلة خمسة عشر عاماً، منعزلاً وحيداً... إنه رجل بسيط... أقرب الى التوحّش.. كان ينام في هذه الزاويـة غير مبـالٍ بالبـرد والرطوبة والعواصف التي كانت تقـذفها أمواج البحر فيتسرّبُ ماؤها عبر الكُوى. لسنوات طويلة شكّلت عزلة الرجل ظاهرةً مثيرةً للفضول.. وكان الباريسيّون يأتون خلال فصـل الصيف لمشـاهدته ويتصدّقون عليه ببعض القطع النقدية... وخطر لأحد تجّار البطاقات البريدية أن يصوّره ويبيع

صوره عند المدخل. خلال الحرب مات الرجل... ولم يخطر في بال أحد أن ينظف المكان من بعده... لذلك راودتني الفكرة يوم البارحة، فإذا أراد أحدٌ ما أن يتوارى عن الأنظار في هذه المنطقة فلن يجد ملاذاً أفضل من هذا المكان...».

تسلّق ميغريه سلّماً حُفِرَت درجاته في سَمْك الحائط الحجري فأفضى به الى مُرقب أو بالحري الى برج غرانيتي مكشوف الجوانب يُشرف على المنطقة بأسرها.

«هذا مرقبُ الحارس الليلي... كان يُستخدم قبل ابتكار المنارات، إذ يكفي أن يُشعل الحارس ناراً... إذاً، هذا الصباح جئنا، زميلي وأنا، إلى هذا المكان وتسلّلنا خلسةً... وفي الأسفل وجدنا رجلاً نائماً في الموضع نفسه الذي كان ينام فيه المعتوهُ فيما مضى، وكان شخيره يملأ المكان... ضخم الجثة . كأنه عملاقٌ يسمع نخير تنفّسه على بعد عشرين متراً... واستطعنا أن نكبِّل معصميه بالأصفاد قبل أن يستيقظ...».

في الأثنــاء كان ميغـريه والشرطي الشاب قد نزلا الى الحجرة المربّعة الباردة.

«هل قاوم؟...

ـ لا، لم تبـدر منـه مقـاومة عنيفة!... طلب منه زميلي أوراقه الثبوتية فلم يُجب... أنت لم تستطع أن تراه... كان بمفرده أقوى منا نحن الاثنين... حتّى أني لم أرفع يدي لحظة واحدة عن قبضة المسدّس... يداه!... يدان ضخمتان، أليس كذلك؟.. ولكن حاول أن تتخيّل يدين أضخم منهما بمرتين، وتكسوهما الوشوم المختلفة...

ـ وهل تمعّنت في ما تمثله الوشوم؟

ـ لم ألحظ إلاّ شكل مرساة على اليدِ اليسرى وحولها من الجانبين أحرف «س. س.»... بالإضافة الى رسوم معقّدة... أعتقد أن أحدها يمثل رسم أفعى... حاولنا ألا نمسّ شيئاً مما وجدناه مهملاً على الأرض... انظر!..».

فضلات من كلّ شيء: قناني نبيذ من الصنف الجيّد، قناني كحولٍ فاخر، معلّبات فارغة ونحو عشرين علبة مختومة.

لا بل أكثر من ذلك: رمادُ نار أُشعلت في وسط الحجرة، وبمحاذاتها عَظْمة «جيغو» إلتُهم لحمها فلم يبق له أثر. بضع قطع كبيرة من الخبز. وبعض أحساك السمك. وقواقع سان جاك وبقايا من سرطانِ البحر.

«اكتشاف حقيقي! قال الشرطي الشاب الذي لم يحظَ يوماً بوليمة مماثلة. إنّ هذه الفضلات تفسر بعض الشكاوي التي تلقيناها مؤخراً... لم نُعرها اهتماماً لأنها تدور حول سرقات صغيرة... رغيف خبز كبير سرق من أحد المخابز... سلّةٌ مليئة بالأسماك فُقِدَت من أحد مراكب الصيد... وأمين مستودع «بروفيه» الذي ادّعى أن ثمة من يسرق سرطانات البحر في الليل...».

حاول ميغريه أن يجري حساباً غريباً لمعرفة عدد الأيام التي يحتاجها رجل نهمٌ لاستهلاك كلّ الكمية المُستهلكة من الطعام.

«أسبوع... همس قائلاً. أجل.. بما في ذلك وجبة «الجيغو»...».

وسأل بغتة:

«والكلب؟..

ـ هذا ما كنت أتوقعه! لم نعثر عليه. لقد وجدنا أثراً لقوائمه على الأرض ولكننا لم نلمحه... أنت تعلم بلا ريب أن العمدة تصرّف على هذا النحو بسبب الدكتور... وأعتقد أنه سيُبرق الى باريس كما قال...

ـ وهل كان الرجل مسلّحاً.

ـ لا! أنا الذي فتشتُ جيوبه فيما أمسكه زميلي بيبيوف محاولاً شلّ حركته... وعثرنا في جيب البنطال على بعض الكستناء المشوية... ولا بدّ أن مصدرها العربة المتنقّلة التي تُركن يومي السبت والأحد قبالة دار السينما... وبضع قطع نقدية لا يبلغ مجموعها العشرة فرنكات... وسكين... ولكنّه ليس بالسكين الخطر... بل السكين الذي يستخدمه البحّارة عادة لقطع الخبز..

ـ ألم يتفوه بكلمة؟...

ـ لم ينبس ببنت شفة... مما جعلنا، زميلي وأنا، نحسب أنّه بسيط وأبله كسابقه المعتوه الذي أقام قديماً في هذا المكان. كان يرمقنا بنظرات دبّ... ولحيته النابتة منذ ثمانية أيام على الأقل، بالإضافة الى سنين مكسورتين في وسط فمه.

ـ وثيابه؟

ـ لا أعرف كيف أصفها لك... طقم عتيق... ولا أعرف إذا كان يرتدي تحت السترة قميصاً أو كنزة صوف... كنّا فخورين بصيدنا... وقد سنحت له فرصة الفرار مراراً قبل أن نصل الى المدينة... لكنّه لم يفعل، لذلك كنّا شبه غافلين عنه عندما قطع الأصفاد بنترةٍ واحدة... لقد أحسستُ عندها أن يدي قد بُترت من

المعصم. للمناسبة، بخصوص الدكتور ميشو...

ـ ما به؟...

ـ المتوقع أن تعود والدته اليوم أو غداً... إنها أرملة نائب سابق... ويُقال أنّها امرأة متنفّذة... فضلاً عن كونها صديقة مقرّبة من زوجة العمدة...».

نظر ميغريه في اتجاه المحيط الرمادي عبر الكوى. كانت بضعة مراكب شراعية صغيرة تبحر بين رأس كابيلو ومكسر صخري يحجبه ارتداد الموج، ثمّ تنعطف وتنصبُ شباكها على بعد أقلّ من مِيْل.

«أتعتقد فعلاً أن الدكتور هو الذي...؟

ـ لنغادر!» قال الكوميسّير.

كان المدُّ في أوجه. وعندما خرجا من المبنى كانت المياه تلامس حافة المنبسط الصخري. وعلى بعد مئة متر شاهدا صبيّاً يقفز من صخرة الى صخرة بحثاً عن الصفائح التي نَصَبها في الأجواف. لم يلزم الشرطيُّ الصمت.

«ما يثير العجب فعلاً هو التعرّض للسيّد موستاغين، فهو بالفعل أفضل رجالات كونكارنو... حتّى أنّه رُشح لمنصب رئيس المجلس البلدي... يبدو أنّه نجا ولكنّ الرصاصة لم تستخرجُ من الجرح بعد... وسيحمل قطعة الرصاص هذه في أحشائه الى الأبد!... والمؤسف أنّ ما جرى له بسبب رغبته في إشعالِ سيكار...».

لم يلتقّا حول الأحواض بل اجتازا جزءاً من الميناء على متن

مُعدّية تقوم برحلاتٍ منتظمة، ذهاباً وإيّاباً، بين «المعبر» والبلدة القديمة.

على مقربةٍ من المكان الذي شهد، بالأمس، رجم الكلب الجريح على يدِ حفنـة من الصبية، لمح ميغريه جداراً عالياً وباباً ضخماً يعلوه بيرق ولافتة كتبت عليها هذه الكلمات: «مخفر الشرطة الوطنية».

اجتاز الفناء الداخلي للمبنى الذي شيّد في عهد كولبير. وفي أحد المكاتب كان المفتش لوروا يناقش المفوّض المناوب بحدّة.

«الدكتور؟... سأل ميغريه.

ـ بالضبط! فالمفوّض يرفض رفضاً باتاً أن يُسمح له باستقدام وجباته من الخارج...

ـ إلّا إذا تمّ الأمر بضمان مسؤوليتك الخاصة! قال المفوّض مخاطباً ميغريه. وفي مثل هذه الحال أطالبُ بأمر خطّي يرفع عني المسؤولية...».

كان الفناءُ ساكناً كفناء دير تخترق صمته سقسقةٌ رقيقة لمياهِ ينبوعٍ جارٍ.

«أين هو؟

ـ هناك، الى الجهة اليمنى... تدفع الباب... ثمّ تصل الى الباب الثاني في الرواق... أتودّ أن أرافقك؟... لقد اتصل العمدة هاتفياً للتوصية بأن يُعامل السجين أفضل مُعاملة...».

حكّ ميغريه ذقنه فيما مكث المفتش لوروا والشرطي الشاب الذي بدا من مجايليه، يرمقانه بكثير من الفضول والحياء.

بعـد ذلك بلحظات دخل الكوميسّير، بمفرده، الى زنزانة طُليت جدرانها بالكلس الأبيض.

كان ميشـو جالســاً الى طاولة صـغـيرة من الـخشب الأبيض، فنهض عند دخول ميغريه وتردّد لثوانٍ، ثمّ بادر الى القولِ مُشيحاً بنظراته:

«أنا أعتقد أيّها الكوميسير أنّك افتعلت هذه المسرحية المضحكة لكي تتجنب وقوع حادثة أخرى، لكي تجعلني بمنأى عن... بمنأى عن ضرباتِ...».

ولاحـظ ميغـريه أنهم لم يجرّدوه من حمالات بنطاله ووشاحه وسيور حذائه، كما ينصّ القانون. وبطرف قدمه قرّب كرسيّاً منه وجلس عليه، وبعد أن حشا غليونه، قال بلهجة طيبة:

«بحق السماء... تفضّل اجلس يا دكتور!...».

- ٦ -

رجل جبان

«هل أنت مُتطيِّر، أيّها الكوميسّير؟».

كان ميغريه قد جلسَ مفرشخاً على الكرسي وأسند مرفقيه الى مسندها، فمطَّ قليلاً بشفتيه رداً على الدكتور مما يعني أنه يترك له الخيار في اختيار الاجابة سلباً أو إيجاباً. وكان الدكتور لا يزال واقفاً.

«أعتقد، أننا جميعاً، نؤمن في أعماقنا بالفأل السيء ونتطيَّر في بعض الأوقات، أو إذا شئتَ، في الأوقات التي نشعر فيها بأننا مستهدفون...».

سعل في منديله ثمّ تفحّصه بكثير من القلق وأردف قائلاً:

«لو سألتني منذ ثمانية أيام لكنتُ أجبتك بأنني لا أؤمن بالوسطاء الروحيين... ومع ذلك!:... منذ خمس سنوات تقريباً... كنّا حفنةً من الأصدقاء نتناول طعام العشاء الى مائدة إحدى الممثلات في باريس.. وعندما ذهبنا الى المقهى بعد العشاء اقترح أحدنا أن نعمد الى استخارة ورق اللعب... أوتدري بماذا تنبّأ لي؟... يومذاك ضحكتُ كثيراً، صدّقني!.. وما جعلني أضحك

مقهقهاً أنَّ ما قيلَ لا يختلف عن اللازمة المعتادة· امرأة شقراء، رجلٌ مسنّ يضمر لك كلّ الخير، رسالة تصلك من بعيد، إلخ..

«اما أنا فقد قيل لي:

ـ ستموت ميتة بشعة... ميتة عنيفة .. احترس من الكلاب الصفراء. ..».

كان أرنـســت ميشــو يتكلم طيلة الوقت دون أن ينـظر الى الكوميسّير ثمّ رمقه بنظرة خاطفة. مكثَ ميغريه لا يحرّك ساكناً، لا بل بدا، لضخامة جسمه على الكرسي، أشبه بتمثال من السكون.

«ألا ترى أن الأمـر غريب بعض الشيء؟... طوال سنوات لم أسمـع عن الكـلاب الصفـراء... ويـوم الجمعـة تبدأ الأحداث المأساوية... كان من الممكن أن أكون أنا نفسي من يحتمي بعتبة المنزل الشاغر ويُصاب بالرصاصة... ثمّ يظهر كلب أصفر!

«صـديق آخر يختفي في ظروف غامضة الملابسات... والكلب الأصفر يواصل تجواله في الأنحاء!...

أمس، كان دور لو بومّيري... والكلب الأصفر أيضاً وأيضاً!... وتريدني ألّا أقلق؟...».

أطلق كلامه هذا دفعة واحدة، حابس الأنفاس، وبدا أن ما أدلى به قد أعاد اليه بعض التماسك. وحيال ذلك لم يستطع الكوميسير، في سعيه للتهدئة من روعه، إلّا أن يتنهد قائلاً:

«بالطبع... بالطبع...

ـ أليس مقلقاً ما يدور حولنا؟... أدرك الآن أنني بدوت لك كرجل جبـان... أعترف، أجل! لقد تملكني الخوف... احساس غامض

بالخوف أطبق على أنفاسي منذ الحادثة الأولى، وخصوصاً حين ظهر الكلب الأصفر ..».

كان يذرع الزنزانة جيئةً وذهاباً ولا تفارق عيناه الأرض. ثمّ بدا الانفعال على ملامح وجهه.

«كدتُ أطلب منك الحماية، ولكنّي خشيت ابتسامتك الهازئة... وخشيتُ نظرة الاحتقار من عينيك... ذلك أن الأقوياء يحتقرون الجبناء...».

ثمّ أصبح صوته ثاقباً.

«وأعترف لك أيّها الكوميسير، أنا جبان!... منذ أربعة أيام وأنا أشعر بالخوف، أربعة أيام والخوف يعذّبني... ليست غلطتي! إن معرفتي بالطب تجعلني قادراً على تشخيص حالتي بدقة...».

«عند ولادتي كان عليهم أن يضعوني في محضنة اصطناعية... وخلال طفولتي أصبت بكافة أمراض الأطفال. .

«وعندما نشبت الحرب ارتأى أطباء يجرون فحصاً وقائياً لخمسمئة رجل في اليوم الواحد أنني صالح للخدمة وأرسلوني الى الجبهة.. والحالُ أنني خضعت، قبل ذلك بعامين، لعملية استئصال احدى الكليتين فضلاً عن الدهن الرئوي وآثار جروح قديمة في الجهاز التنفسي.

«لقد شعرت بالخوف!... خوف كاد يُفقدني صوابي!... ثمّ عثر علي ممرضون مطموراً بالتراب بعد أن قذفني انفجار قذيفة الى حفرة لغم... وفي النهاية أدركوا أنني غير صالح للخدمة العسكرية...

«مـا أسرده على مسـامعـك قد لا يكون جميلاً . ولكنّي كنتُ أراقبك طيلة الوقت. ولديّ انطباع أنك قادر على الفهم...

«أيـة سهـولة، الأقوياء يحتقرون الجبناء... ولكن من عساه يسأل عن الأسباب الدفينة للجبن...

«مثلاً، لقد أدركت على الفور أنك تنظر الى شلّتنا، شلّة مقهى «أمـيرال» بشيءٍ من الاحتقار. وقيل لك إنني أعملُ في ميدان بيع الأراضي... وأنني ابن نائب سابق...، ودكتور في الطب.. والروايات عن تلك الأمسيات حول طاولة المقهى برفقة فاشلين آخرين.

«ولكن ما الذي كان في وسعي ولم أفعله؟... كان أهلي ينفقون مبالغ طائلة من المال على الرغم من الصعوبات المالية التي طرأت على أعمالهم... ومثل هذا السلوك شائعٌ في باريس... لقد نشأتُ في محيطٍ من البذخ... ثمّ يموتُ والدي وتبدأ أمي بأعمال المضاربة في البـورصـة، وبعضهـا غير مشروع، في محاولة منها للحفاظ على كبريائها ومكانتها كإحدى سيّدات المجتمع المخملي، برغم ملاحقة الدائنين...

«مددتُ لها يد العون! وبذلت كلّ ما في وسعي! ومشروع الأراضي المفرزة هذا... ليس ضخماً... وهذه الحياة هنا.. حياة وجهاء!... كلّها قامت على أسسٍ غير متينة...

«طيلة الأيـام الثلاثة المنصرمة كنتَ تراقب سكناتي وحركاتي ولذلك أردت أن أسرّ إليـك بمكنـون قلبي... كانت لي زوجـة... وطالبتني زوجتي بالطلاق لأنّها ترغبُ في زوجٍ تحرّكه طموحات أكبر...

«كلية واحدة... وأقضي ثلاثة أو أربعة أيام في الأسبوع واهناً متهالكاً عليلاً أجرّ أقدامي بين السرير والكنبة...».

جلس بعياء.

«لا بدّ أن إيمّا اعترفت لك بأنني كنتُ عشيقها... حماقة، أليس كذلك؟ لأننا أحياناً نشعر بحاجة لإمرأة.. ولا يمكن أن نفسّر مثل هذه الأمور لكلّ الناس...

«في مقهى «أميرال» كنت لأصاب بالجنون... الكلب الأصفر.. اختفاء سرفيير.. بقع الدماء في سيّارته... وخصوصاً موت لو بومّيري بمثل تلك الطريقة البشعة...

«لمَ هو بالذات وليس أنا؟... كنّا سوياً قبل وفاته بساعتين، نجلس الى الطاولة نفسها وأمامنا الكؤوس نفسها... وكان يراودني إحساس أقرب الى اليقين بأنني سأكون الضحيّة التالية إن بارحت مكاني... ثمّ الإحساس بأنّ الحلقة تضيق من حولي، وأن الخطر يتهدّدني داخل الفندق، وداخل غرفتي بالذات...».

«لقد سرت في أوصالي قشعريرة غبطة عندما وقّعت مذكرة اعتقالي.. ومع ذلك...».

جال بعينيه على الأرجاء، الجدران من حوله والنافذة ذات القضبان الحديدية الثلاثة والمطلّة على الفناء.

«ينبغي أن أبدّل موضع فراشي، أن أضعه في تلك الزاوية... كيف أمكن أن يحدّثني أحدٌ عن كلبٍ أصفر منذ خمسة أعوام، أي وقتٍ لم يكن فيه الكلب قد ولد بعد؟... إني خائف، أيّها الكوميسير! أعترف لك، لا بل أصرخ معترفاً بأعلى صوتي إني خائف!... لا أبالي

بمـا قد يقـوله الناس عندما يعلمون أنني نزيل السجن... ما لا أريده هو أن أموت!... ولكن ثمّة من يتربّص بي شخصٌ لا أعرفه، وهو الذي قتل لو بومّيري والأرجح أنه قتل غويار وأطلق النار على موستاغين.. لماذا؟.. أخبرني!.. لماذا؟... لا بدّ أنه معتوه... وحتّى الساعة لم يتمكن أحدٌ من النيل منه!... إنّه طليق!... يتسكّع في الأنحـاء من حولنـا مُتحيّناً الفرصة الملائمة... يعلم أنني هنا.. وسيأتي برفقة كلبه الرهيب الذي تشبه نظراته نظرات البشر...».

نهض ميغريه ببطء، ونقر بغليونه على حافة نعله. وردّد الدكتور بصوتٍ منتحبٍ قائلاً:

«أعلم أنني أبدو لك بمظهر جبان... هاكَ!... أنا واثق من أنني سأعاني الأمرّين هذه الليلة بسبب كليتي...».

كان ميغـريـه ماثلاً هناك كأنّه المثلُ النقيض لحالة السجين، ولاضطرابه وحمّاه ومرضه، نقيض ذلك الهلع الجبان غير السويّ والمقزّز.

«أترغب في استشارة طبيب؟...

ـ كلّا!... لمجرّد أن أتوقع مجيء أحد ما، يزداد خوفي. إذ أترقّب مجيئه هو، الرجلُ صاحبُ الكلب، المعتوه، القاتل...».

كان على وشك أن تصطكّ أسنانه.

«أتعتقـد أنكم ستـوقعـون به، أو تنـالون منــه مثـل حيوان مسعور؟... ذلك أنه مسعور بالفعل!... إذ لا بدّ من سبب للقتل بهذه الطريقة...».

ثلاث دقـائق أخـرى كانت كافية لأن يُصاب بانهيار عصبي

ففضّل ميغريه أن يغادر فيما مكث السجين يتبعه بنظراته الهلِعة، مطأطئاً منتفخ الجفنين.

*

* *

«هـل سمعتني جيّداً، أيها المفوّض؟ .. لا تسمح لأيٍّ كان أن يدخـل الى زنـزانتـه، وستحمـل اليـه الطعام بنفسك وتلبّي كل مطاليبه... وبالمقابل لا تدع في الزنزانة ما قد يستخدمه كسلاحٍ لقتـل نفسـه... انتـزع سيور حذائه، وربطة العنق... ولتوضع حراسة مشدّدة في الفناء ليلاً نهاراً... ثمّ المعاملة اللائقة... الكثير منها...

ـ رجـل على هذا القدر من التميّز! قال مفوض الدرك مُشفقاً أتظن انه سيكون...؟

ـ الضحية التالية، أجل!... وأجعلك مسؤولاً عن سلامته!.. ».

وغـادر ميغـريـه سالكاً الزقاق الضيّق مخوّضاً في نُقع الماء. أصبحت المدينة كلّها تعرفه. إذ لا تلبث الستائر أن تزاح قليلاً عند مروره والصِبية يتوقفون عن اللعب حين يرونه ويرمقونه بنظرات احترام وجلة.

كان يهمّ باجتيـاز الجسر المتحرّك الذي يصل البلدة القديمة بالمدينة الجديدة عندما التقى المفتش لوروا الذي كان يبحث عنه.

«هـل من جديد؟.... أو على الأقل هل عثرتم على الدبّ الذي نبحث عنه؟..

ـ أيّ دبّ؟

ـ الرجل ذو القدمين الهائلتين...

ـ كلا! لقد أمر العمدة بوقف عمليات التفتيش لأنّها تثير البلبلة والاضطراب في أوساط الأهلين. واكتفى بنشر عدد من رجال الدرك للحراسة في بعض النقاط الاستراتيجية.

ـ ولكنْ ليس هذا ما جئتُ أحدّثك عنه... جئتُ بخصوص الصحافي غويار الملقّب جان سرفيير.. لقد أفاد أحد التجار الجوّالين جازماً أنه صادفه يوم أمس في بريست... وتظاهر غويار بأنه لم يره وأشاح بوجهه عنه...».

ذهل المفتش حيال الهدوء الذي أبداه ميغريه لدى سماعه هذا النبأ.

«وقناعة العمدة أن التاجر قد أخطأ وأن الأمر قد التبس عليه... فهناك آلاف من الرجال البدينين وصغار القامة في المدن كافة... ثمّ أوتدري ماذا همس في أذن مساعده بصوتٍ مسموع، ربّما لكي أسمع جيّداً ما يقول؟... حرفياً.

«سوف يقتفي الكوميسّير هذا الأثر المغلوط، وسيقصد بريست غيرمبالٍ بما قد يفعله القاتل الحقيقي هنا!...».

تقدّم ميغريه نحو عشرين خطوة مُطرقاً. وكان الباعةُ في الساحة يفكّون مفارشهم الخشبية إيذاناً بانتهاء السوق...

«كدتُ أجيبه بـ...

ـ بماذا؟....

احمرّت وجنتا لوروا، وأشاح بوجهه.

«هذه هي المشكلة بالضبط! لستُ أدري.. أنا أيضاً كنت

أحسبُ أنك لا تبالي كثيراً بالقبض على المتشرد ..

ـ كيف حال موستاغين؟...

ـ في حالة أفضل. ما زال لا يدرك دوافع الاعتداء الذي تعرّض له... توسل الى زوجته كي تغفر له... وتسامحه لأنه مكث في المقهى حتى ساعة متأخرة ولأنه غادره شبه ثمل!.. وأقسم وهو ينتحب أنه لن يذوق بعد اليوم نقطة كحولٍ واحدة...».

كان ميغـريه قد توقّف قبالة الميناء على بُعد خمسين متراً من فنـدق «أميرال». كانت بعض المراكب تدنو من المرسى وقد أرخت أشرعتها السمراء مُلتفّةً حول الرصيف متهادية في تقدّمها البطيء على وقعِ ضربات مجذاف المؤخّرة.

وكـانت المياه التي ارتدت خلال فترة الجزر قد تكشّفت، عند أسفلِ أسوار البلدة القديمة، عن طبقاتٍ من الطين المرصّع بالقدور التالفة والفضلات.

وكانت تغمز ببصيص خافت من وراء قبّة السماء الملبّدة بالغيوم.

«ما رأيك، يا لوروا؟...».

بدا المفتش أشدّ ارتباكاً.

«لست أدري... يبدو لي أنّه لو أمسكنا بالرجل... ثمّ لاحظ أن الكلب الأصفر قد توارى هو أيضاً... تراه ما الذي كان يفعله في فيللا الدكتور؟... لا بدّ أنّ السموم كانت موجودة هناك.. لذلك استنتج...

ـ أجـل، بالطبـع!... ولكنّ المشكلة هي أنني، من جهتي، لا أستنتج على الاطلاق...

ـ ولكن رؤية المتشرّد عن كثب أمر يثير فضولي... لقد أثبتت البصمات والآثار أنه ضخم البنية...

ـ بالضبط!...

ـ ماذا تقصد بقولك هذا؟....

ـ لا شيء!...».

مكث ميغريه لا يحرّك ساكناً كأنّه استغرق في متعة تأمّل المنظر أمـامه، الميناء الصغير، رأس كابيلو، الى الجهة اليسرى، وغابات الصنوبر المجاورة له والجهاتُ الصخرية المتقدّمة، والمنار الأسود والأحمر، والعوّامات القرمزية راسمة حدود المعبر المفضي الى جزر غلينان التي حجبها الاكفهرار الشتوي عن الرؤية.

كان لدى المفتّش الكثير ممّا يودّ قوله.

«لقد اتصلت هاتفياً بباريس لكي أحصل على معلومات بشأن غويار الذي عاش فيها لسنوات طويلة...».

رمقه ميغريه بنظرةِ استهزاءٍ ودود، فسارع لوروا الذي أجفلته البادرة، الى الادلاء بما يعرفه بوتائر متسارعة:

«المعلومات المتوفّرة عنه إمّا جيّدة جداً وإمّا سيئة جدّاً... لقد تحدّثت الى مفوّض سابق في مفرزة الآداب يعرفه شخصيّاً... ويبدو أنه ارتقى السلّم على مهل في كواليس الصحافة... عمل في البداية كمخبر صحافي... ثمّ مديراً لملهى ليلي في مونمارتر... أشهر إفلاسه مرتين... ثمّ رئيس تحرير صحيفة صغيرة في احدى المناطق، أعتقد

أنهـا «نيفـر»... وفي آخـر المطاف وجد نفسه مديراً لإحدى علب الليل... إنّه من طراز أولئك الناس الذين يجيدون العوم... وهذه هي العبارة الحرفية التي استخدمها المفوّض... لكنّه أضاف: إنه شخص ليّن العريكة؛ وعندما اتضح له أخيراً أنّه لن يتوصل في آخر المطاف إلّا الى الإفلاس أو التورّط ببعض القضايا المريبة، فضّل أن يعود الى المناطق الداخلية...

ـ إذاً؟...

ـ إذاً لماذا افتعل تعرّضه للاعتداء... ذلك أني عدتُ ودققت في السيّـارة... هناك بقع دماء، دماء حقيقية... وإذا كان الاعتداء حقيقيّاً، لماذا توارى عن الأنظار كل هذه المدّة، ولماذا شوهدَ الآنَ في بريست؟...

ـ جيّد جداً!...».

نظر المفتش الى ميغريه متمعّناً كي يطمئنّ الى أنّ الكوميسّير لا يمزح. ولكنْ، لا، أبداً! كان الكوميسّير مقطباً، مُستغرقاً في تأمل بارقة ضوء ينبعث وئيداً عند الأفق.

«أما بخصوص لوبومّيري..

ـ ألديك مصادر معلومات عنه؟...

ـ لقد جاء شقيقه الى الفندق راغباً في التحدّث إليك... ولم يكن لديـه الوقت الكافي لانتظارك... فراح يكيل للميتِ عبارات القدح والذم... أو على الأقلّ ما يظنُّ هو أنه قدح وذمّ: قال إنّه تنبل... وله هوايتان: النساء والصيّد... بالإضافة الى هوسه الدائم في تراكم الديون واصراره على لعب دور الوجيه... وإليك هذا التفصيل من

بين تفـاصيـل أخـرى. لقد أسرّ إليّ الشقيق وهو أكبر صناعيي الناحية، قائلاً:

ـ «فيما يعنيني، أنا، أقنَعُ بشراء ملابسي من بريست... وهي ليست من النوعية الباذخة، ولكنها متينة ومريحة... أمّا ايف فكان يستقدم ملابسه الجاهزة من باريس.. ولا يقنع إلاّ بأحذية ممهورة بتواقيع أشهر المصممين!... حتّى زوجتي تقنع بالأحذية الجاهزة...

ـ فاضح!... قال ميغريه مثيراً ذهول لا بل استياء رفيقه.

ـ لمـاذا؟

ـ رائع، إذا شئت! كما قلت أنت منذ قليل، إنها رحلة في الحياة الريفيّة! رحلة جميلة كما في الأيام الغابرة! أن نعرف مثلاً إذا كان لوبومّيري ينتعل أحذية جاهزة أو أحذية مفصّلة خصّيصاً له!... قد تبدو هذه الأمور تافهة ولا طائل فيها.. ولكن صدّقني إن شئتَ، هنا تكمن عقدة المأساة.. هيّا بنا نتناول شراباً مقبّلاً، يا لوروا!... كما اعتاد هؤلاء السادة في مقهى «أميرال».. كلّ يوم».

«حدّج المفتّش رئيسه مرّة أخرى بنظرات فاحصة كي يطمئن إلى أنّه لا يسخر منه. فقد كان يتوقع منه أن يكيل له التهاني للنشاط الذي أبداه منذ الصباح ولمبادراته العديدة.

وكان ميغريه يتصرّف وكأنّ كلّ هذا ليس أكثر من دعابة!

*

* *

عمَّ المكانَ اضطرابٌ يُشبه الاضطراب الذي يعمُّ أحد الصفوف

حين يدخل اليه الأستاذ فيما التلاميذ يثرثرون. كفّت الهمسات والأحاديث. وهرع الصحافيون للقاء الكوميسّير

«أبإمكاننا الاعلان عن اعتقال الدكتور؟ وهل أدلى بأيّة اعترافات؟..

ـ لا، لا شيء!...».

نحّاهم ميغريه بحركة من ذراعه وصرخ مخاطباً إيمّا:

ـ قدحا برنو، يا صغيرتي...

ـ ولكن ماذا يعني اعتقال السيّد ميشو..

ـ أتسعون وراء الحقيقة؟...».

فسارع الصحافيون الى فتحِ دفاترهم وشهروا أقلامهم في انتظار الحقيقة.

«الواقع، أن الحقيقة لم تظهر حتّى الآن... ربّما ستظهر ذات يوم... وربّما لا...

ـ هناك من يزعم أن جان غويار..

ـ حيٌّ يرزق! نعم ما حدث له!

ـ هذا لا يُلغي حقيقة الرجل المتواري والذي يجري البحث عنه... عبثاً.

ـ الأمر الذي يبرهن على تفوّق الطريدة على الصيّاد!..».

وأمسك ميغريه بكم إيمّا وقال لها برفق:

«ستقدّمين لي طعام الغداء في غرفتي...».

كرع شرابه جرعةً واحدة ونهض.

«نصيحتي لكم أيها السادة! لا تستعجلوا استنتاجات سابقة لأوانها! وعلى الأخصّ إيّاكم والتكهن...

ـ ماذا عن الجاني؟...».

هزّ كتفيه وتنهّد قائلاً:

«تُرى مَن يدري؟...».

كان ميغريه قد وصل الى عتبة السلّم حين نظر اليه لوروا بنظرات استفهام خاطفة.

«لا، يا صديقي... كُل أنت إلى مائدة الضيوف... أمّا أنا فأحتاج للراحة...».

سمع وقع أقدامه تصعد السلم بتثاقل ظاهر. وبعد ذلك بعشر دقائق صعدت إيمّا الى غرفته حاملةً صينية ملأى بالمقبّلات واللحوم الباردة.

ثمّ شوهدت وهي تحمل صدفية سان جاك، وقطع لحم مشوي وبعض السبانخ.

في صالة الطعام كانت الأحاديث خافتة فاقدة الحماسة. استدعي أحد الصحافيين للردّ على مكالمة هاتفية وسُمع وهو يقول:

«نحو الساعة الرابعة، أجل!... آمل أن أنصّ عليكم مقالةً مثيرة... لا، ليس بعد!... يجب أن ننتظر...».

كان لوروا جالساً بمفرده الى المائدة، يأكل بروية صبيّ مهذّب، في كل لحظة، يمسحُ طرفَ شفتيه بالفوطة.

أمّا الباعة في الساحة فكانوا يُراقبون واجهة مقهى «أميرال»

يحدوهم الأملُ الغامض بأن شيئاً ما سيحدث هناك.

دركيّ أسند ظهره الى زاوية الزقاق الذي سلكه المتشرّد قبل تواريه عن الأنظار.

«العمدة يطلب التحدّث الى الكوميسّير ميغريه على الهاتف!».

اضطرب لوروا وأمر إيمّا قائلاً:

«هيّا اصعدي وأبلغيه بالأمر...».

إلاّ أن الخادمة عادت من الغرفة وقالت:

«الكوميسّير ليس في غرفته!...».

هرع المفتش يصعد السلم بخطوات عملاقة، ثمّ عاد أدراجه ممتقعاً ورفع السمّاعة.

«آلو!... أجل يا سيّدي العمدة!... لست أدري أ... أشعر بالقلق... لم نجد الكوميسّير في غرفته.. آلو!..لا!.. لا أستطيع أن أقول شيئاً... تناول طعامه في غرفته.. ولم أره يغادرها... سأعاود الاتصال بك لاحقاً..».

وقف لوروا الذي ما زال ممسكاً بفوطته، وراح يمسح بها جبينه.

-٧-

رجل وامرأة يستضيئان بنور شمعة

لم يصعد المفتّش الى غرفته إلّا في مضيٍّ نصف ساعة. ووجد على الطاولة قصاصة ورق كتب عليها بخط غير مقروء:

«إصعد هذا المساء نحو الساعة الحادية عشرة إلى السطح، واحرص على أن لا يراك أحد. وستجدني هناك في انتظارك. لا تحدث أية جلبة. وكن مسلحاً. قُل إني ذهبتُ الى بريست ومن هناك اتصلت بك هاتفياً. لا تغادر الفندق».

«ميغريه»

قبل الحادية عشرة بدقائق خلع لوروا حذاءه وانتعل خفّين من اللّبْد كان ابتاعهما بعد ظهر ذلك اليوم لهذا الغرض ولشدّة ما أثارت فيه المغامرةُ من فضول.

«بعد الطبقة الثانية، لاحظ أنّه لم يعد هناك درج، بل سلّم خشبي يُفضي الى شونةٍ يسودها الصقيع لأنّها معرّضة لعددٍ من مجاري الهواء، وهناك غامر المفتش باشعال عود ثقاب

بعد ذلك بثوان كان يجتاز المنور إلّا أنه لم يجرؤ على النزولِ فوراً الى الإفريز. كانت البرودة تهبّ من كل شيء. إذ تجمّدت أصابعه لمجرد أن لامست ألواح التوتياء. ولم يُرد لوروا قبل

الانطلاق بمغامرته أن يرتدي معطفاً قد يعيق حركته.

عندما اعتادت عيناه العتمة، تراءى له كتلة داكنة ضخمة كأنها حيوان متربّص. ثمّ زكمت أنفه رائحة الغليون. فأطلق صفيراً خافتاً.

ثمّ انضمّ الى ميغريه الذي اقتعد الإفريز. من هناك، كانت الرؤية محجوبة فلا يريان لا البحرَ ولا المدينة. فالإفريز يحدّ السطح من الناحية المقابلة للمرفأ ويُطلّ على معبر حالك العتمة ليس سوى الزقاق الذي سلكه المتشردُ ذو القدمين الكبيرتين.

كانت السطوح متفاوتة غير منتظمة، بعضها وطيء جداً وبعضها بمستوى نظرالرجلين. ونوافذ قليلة مضاءة، هنا وهناك. وبَعضها حُجِبَ بستائر حيث تتراءى الأخيلة كما في مسرح الظلّ الصيني. وداخل غرفةٍ بعيدة بعض الشيء، كانت امرأة تغسلُ طفلها في حوضٍ من المعدن المطليّ.

تحرّكت كتلة ظلّ الكوميسّير لا بل زحفت حتى التصق فمه بأذن رفيقه.

«احترس! لا تحاول القيام بأيّة حركة مُباغتة. فالإفريز ليس بالمتانة الكافية ويوجد في الأسفل أنبوب ميزاب يكادُ يتداعى من تلقائه محدثاً الجلبة إيّاها... والصحافيون؟

– جميعهم في الأسفلِ، باستثناء واحد ذهبَ الى بريست بحثاً عنك لقناعته بأنّك هناك تقتفي أثر غويار..

– وإيمّا؟...

ـ لست أدري... لقـد كنتُ غافـلاً عنها... ولكنّها أحضرت لي القهوة بعد العشاء».

كان الأمر لا يخلو من الغرابة، أن يكون المرء هناك، بمعزلٍ عن الجميع، فوق دارة زاخرة بالحياة وأناس يسعون في كنفَ الدفء والنور ولا حاجة بهم للتحدّث بصوتٍ خفيض.

«حسناً... استدر الآن برفقٍ نحو المبنى الشاغر... برفق!...».

ثاني منـزل لجهـة اليمين، أحد المباني القليلة التي تضاهي الفندق في ارتفاعها. كانت البقعة التي يقوم عليها المبنى غارقةً في ظلام مطبق ومــع ذلك تراءى للمفتش أنـه لمح بصيصـاً من نور ينعكسُ على زجاج احدى النوافذ في الطبقة الثانية.

وشيئاً فشيئاً أدرك أن الضوء ليس مجرّد انعكاس من الخارج، بل ينبعث من الداخل. وحين أمعن النظر في البقعة نفسها بدأت الأشياء تتضح وتتخذ أشكالاً محدّدة.

أرضيـة مشمّعـة... وشمعة احترق نصفها مستقيمة الشعلةُ تحيط بها هالة...

«إنه هناك، قال بغتةً وقد علا صوته دون قصدٍ منه.

ـ هُسْ!... أجل..».

بدا شخصٌ ممدّد على الأرضية، نصفُه في الجزء المضاء بنور الشمعة ونصفه الآخر في الجزء المعتم. وبدا حذاؤه الضخم وجذعه العريض في كنزة صوف يرتديها البحّارة عادةً.

كان لوروا يعلم بوجـود دركي عنـد طرف الزقـاق، وآخر عند الساحة وثالث يذرع رصيف المرفأ جيئةً وذهاباً.

«هل أنت عازمٌ على اعتقاله؟...

ـ لستُ أدري. لقد مضت ثلاث ساعات ولا يزال نائماً.

ـ أهو مسلّح؟...

ـ لم يكن مسلحاً هذا الصباح...».

كانا يتحدّثان همساً. وشوشات مبهمة تمتزج بحركة تنفسهما.

«لماذا ننتظر؟...

ـ لست أدري... أودّ أن أعرف لماذا أضاء شمعة وهو يعلم جيّداً أنه مطارد... احترس!...».

انبعث نورٌ أصفر في بقعة مربّعة على الجدار المقابل.

«لقد أضاء أحدهم غرفة إيمّا في الأسفل... وهذا انعكاسه عبر النافذة...

ـ ألم تتناول طعام العشاء يا كوميسّير؟...

ـ بلى، لقد أحضرت معي قطعة خبز وبعض النقانق المجففة... الا تشعر بالبرد؟...».

كان البردُ ينخر عظامهما، فيما أنوار المنارة تلتمع في السماء بوتائر رتيبة ومنتظمة.

«لقد أطفأت النور...

ـ أجل... هُسْ!...».

ران صمتٌ لمدة خمس دقائق، وانتظار كئيب. ثمّ تلمّست يد لوروا بحثاً عن يد ميغريه وشدّ عليها يريد أن يلفته الى أمر ما.

«في الأسفل...

ـ أجل...».

انعكـاس ظلّ على الحـائط المطلي بالكلس الذي يسوّر حديقة المنزل الشاغر لجهة الزقاق.

«إنها ذاهبة لملاقاته...» همس لوروا الذي ضاق ذرعاً من السكوت.

وفوق، هناك، كان الرجل لا يزال نائماً بجوار شمعته. حيث سمع وقع أقدام وقطة تفر مجفلة تمسكه بالمزراب.

«ألديك ولّاعة ذات فتيل من صوفان؟».

كان ميغريه لا يجرؤ على اشعال غليونه المطفأ، تردّد طويلاً. وفي آخر الأمر رفع سترة رفيقه وأشعل عود ثقاب متستراً بها ولم يلبث المفتش أن تنشق من جديد رائحة التبغ الدافئة.

«انظر!...».

ثم سكّتـا. نهض الرجـل مذعوراً وكاد يقلب الشمعة. تراجع متوارياً في كنف العتمة فيما فُتح الباب وبدت إيمّا في بقعة الضوء متردّدةً متوجسةً كأنها تدرك الذنب الذي تقترفه.

كانت تحمـل شيئـاً تحت إبطها: زجاجة ورزمة وضعتها على الأرض. وبدا من طرف الورقة التي تغلّفها أنها دجاجة مشوية.

كانت تتكلم، إذ بدا لهما أنها تحرّك شفتيها. قالت كلمات قليلة بشيءٍ من الرضوخ والحزن. إلّا أن رفيقها مكث متوارياً عن أنظار الشرطيين.

هل كانت تبكي؟ كانت ترتدي فستانها الأسود الذي ترتديه عادةً

أثنـاء عملهـا، وتعتمـرُ القبّعة البروتونية. ولم تنزع عنها سوى المريول الأبيض فبدا مظهرها منفّراً أكثر مما يكون عليه عادةً.

بلى! لا بدّ أنها كانت تنتحبُ وهي تتحدَّث... إذ بدت كلماتها متقطعة. والبرهانُ أنها اتكأت فجأة على إطار الباب ودسّت وجهها في باطن ذراعها المثنيّة، وراح ظهرها يهتزّ بوتائر غير منتظمة.

ظهر الرجل فجأةً وحجب النافذة ثمّ ابتعدَ عنها متقدّماً في اتجاه مؤخّر الغرفة. هوت يده الضخمة على كتف الفتاة فأرعدتها حتّى أن إيمّا استدارت كلياً وكادت تقع أرضاً، وبدا وجهها البائس الممتقع وشفتاها المنتفختان من النحيب.

إلّا أن المشهـد برمّته بدا غائماً مشوشاً مثل شريط سينمائي يُعرض في صالةٍ مضاءة... شريط صامت تنقصه الجلبة والأصوات...

كالسينما: لكنها سينما غير مصحوبة بالموسيقى.

برغم أنّ الرجـل هو الذي كان يتكلم. وبـدا أنه يصرخ. دبّ يصرخ. وقد غار رأسه بين كتفيه وانتفخ صدره الضخم حتّى بدت ضلوعـه مرسـومةً بالحرف تحت الكنزة الضيقة؛ وشعره الحليق كسجين، وقبضتا يديه على الوركين. كان يطلق في وجهها الشتائم أو الملامات أو ربّما التهديدات من كلّ نوع.

بدا ثائراً يوشك أن يضربها، حتّى أن لوروا شدّ بيده على ذراع ميغريه كأنّه يريد أن يطمئن نفسه.

واصلت إيمّـا نحيبها. وسقطت قبعتها الى الخلف. وأوصدت نافذة في الجوار فتبدّل المشهد لبضع ثوان.

«أيها الكوميسّير... هل نــ...»

كانت رائحة التبغ عابقةً في محيط الرجلين فتولّد لديهما انطباعاً بالدفء.

لماذا كانت إيمّا تضمُّ يديها متوسّلةً؟.. وتراءى لهما أنها تتكلّم مجدداً... وبدا وجهها مشدود القسماتِ ترتسمُ عليه ملامح الرغب والرجاء والألم، وعندئذ سمع المفتش لوروا تكّةً مألوفة فأدرك أن ميغريه يَصْلي مسدسه.

كانت المسافة التي تفصلُ بين المشاهدين والمشهد لا تزيد عن خمسة عشر أو عشرين متراً. طلقة واحدة يرافقها تحطمُ زجاج ويُصبح الرجلُ عاجزاً عن اذيّة أحد.

كان في الأثناء يذرع أرض الغرفة جيئةً وذهاباً وقد شبك يديه خلف ظهره فبدا أقصر وأثخن. وطئت قدمه الدجاجة وكاد ينزلق فركلها قاذفاً بها الى البعيد.

والتفتت إيمّا الى حيث استقرّت الدجاجة.

ما الذي كان يدور بينهما؟ وما هي لازمة حوارهما المؤثر؟

ذلك أن الرجل بدا وكأنّه يردّد الكلمات نفسها، إلّا أن نبرته أصبحت أقلّ قسوة؟...

ركعت، لا بل ارتمت على ركبتيها معترضةً طريقه ومدّت ذراعيها نحوه.. تظاهر بعدم الالتفات اليها، وتجنّبها، فارتمت أرضاً وقد رفعت يدها متوسّلةً.

كان الرجل يظهر بين الفينة والفينة في بقعة الضوء، ثمّ لا يلبث

أن يتوارى في كنفِ العتمة. وعندما ظهر مجدّداً وقف منتصباً أمام الفتاة المتوسّلة وراح يرمقها.

ثم عاود روحـاتـه وغدواته، دنا منها ثمّ ابتعد، وعندئذ أرخت ذراعها الممدودة نحوه كأنها أصيبت بوهن. واستلقت على الأرضيّة بطولها. وكانت زجاجة النبيذ على بُعد عشرين سنتيمتراً من يدها.

ثمّ حدث ما لم يكن في الحسبـان. فجأةً انحنى المتشرّد لا بل الأحرى، مدّ نحوها إحدى قائمتيه الضخمتين وأمسك بثوبها عند الكتف وبحركة واحدة أرغمها على الوقوف. وكانت حركته تلك من الفظاظة والعنف بحيث ترنّحت في وقفتها حين افلتَ ثوبها.

ولكن برغم ذلك أما كانت ملامح وجهها تشي ببعض الأمل؟ كان شعرها مُسدلاً والطاقية البيضـاء مرميّة على الأرض.

وكان الرجل يتابع مشيه في الأرجاء. ولمرّتين صدّ رفيقته اليائسة.

في المرّة الثالثة احتضنها بين ذراعيه، لا بل مَعَسها على صدره وأبعد رأسها بيده الى الوراء وألصقت شفتيه على فمها بنهم.

بات الشرطيّان لا يريان إلاّ ظهره، ظهره غير البشري، ويد امرأة رقيقة تتشبث بكتفه.

وراح الرجل الفظّ يداعب شعرها دون أن تنفك شفتاه عن فمها، أن يداعب شعرها كأنه يريد أن يفني رفيقته أو يسحقها لا بل أن يمتزج بها.

«غريب!...» قال المفتش منفعلاً.

وبلغ تأثر ميغريه حدّاً كاد معه، كردّ فعل تلقائي، أن ينفجر ضاحكاً.

*

* *

كم من الوقت أمضت إيمّا هناك؟ ربع ساعة؟ كفُّ العناقُ. ونور الشمعة لن يدوم أكثر من خمس دقائق بعد. وبدا أنّ حالة التشنّج التي كانت سائدة قد مالت الى الانفراج.

هل كانت الخادمة تضحك؟ لا بدّ أنها عثرت في مكانٍ ما هناك على قطعة من مرآة. وبدت في بقعة الضوء تلفّ شعرها وتعقصه بمشبك وتبحث بعينيها عن ملقط آخر سقط من شعرها على الأرض ثمّ تلمّه وتضعه بين أسنانها قبل أن تثبّت طاقيّتها.

كانت تبدو جميلة بعض الشيء. لا بل بدت جميلة! وكلُّ ما فيها مثيرٌ، حتّى صدرها المُفلطح وتنّورتها السوداء، وأجفانها المنتفخة المحمرّة. كان الرجل قد لمّ الدجاجة عن الأرض. راح يلتهمها بنهم دون أن يحيد بأنظاره عن الفتاة، وراح يُقضقض العظام وينتزع بأسنانه نتف اللحم.

بحث عن سكين في جيبه فلم يجد فكسر عنقَ القنينة بضربها بنعله. وشرب. وأراد أن يرغم إيمّا على الشراب فحاولت أن ترفض ضاحكةً. ربّما لأنّها خافت من الزجاجة المكسورة؟ لكنّه أرغمها على فتح فمها وسكب الشراب فيه برفق.

غصّت وسعلت. فأمسك بكتفيها وقبّلها مجدّداً، ولكن ليس على فمها، كان يقبلها بغبطةٍ قبلاتٍ صغيرة مُتتالية على الخدّين والعينين

والجبين ولم تعف قبلاته عن طاقيّة الدانتيللا.

بدت مستسلمة في استجابتها له ثمّ اقترب من النافذة وألصق وجهه بالزجاج فسدّ منفذ الضوء المنبعث من الداخل وعندما استدار أطفأ الشمعة.

كان المفتش لوروا مشدود الأعصاب يراقب.

«إنّهما يغادران سويّاً...

ـ أجل...

سيتم القبض عليهما...»

ثمّ بدا ظلّ يتسلق الحائط ويجلس عند حافته. ومكثت إيمّا في الممرّ المسدود تنتظر مساعدة عشيقها...

«ستقتفي أثرهما من بعيد... واحرص على أن لا يرتابا بوجودك!... وستوافيني بما يتحصل لديك عندما تستطيع...».

أعان ميغريه المفتش، كما فعل المتشرد وعشيقته، على تسلق ألواح التوتياء وصولاً الى المنور ثمّ انحنى ليُطلّ ناحية الممرّ المسدود، حيث لم يرَ من الفارّين سوى رأسيهما.

كانا يتهامسان متردّدين. ثمّ بادرت الخادمة الى اقتياد الرجل نحو بناء أشبه بمخزن حيث تواريا لأن الباب لم يكن مقفلاً.

كان ذلك مخزن تاجر الحبال وهو يُفضي عبر بابٍ الى داخل المتجر حيث لن يصادفا أحداً في مثل تلك الساعةٍ. ومن هناك يستطيع الرفيقان أن يخلعا الباب ويفضيا الى رصيف المرفأ.

إلا أن لوروا سيكون هناك في انتظارهما.

*

* *

لم يكد الكوميسّير يهبط السلم حتّى أدرك أن الامور لا تجري على خير ما يرام. فقد تناهت اليه أصداء جلبة مصدرها الفندق. وفي الطبقات السفلى كان رنين جرس الهاتف يختلط بضوضاء الأصوات.

ومن بينها صوت لوروا الذي كان يتحدّث عبر الهاتف، من دون شكٍّ، فاضطرّ الى الصراخ.

هبط ميغريه السلّم مُسرعاً ووصل الى الطبقة الأرضيّة فاصطدم بأحد الصحافيين.

«إذاً؟..

ـ جريمة جديدة... وقعت جريمة أخرى منذ ربع ساعة... في وسط المدينة وقد نقل الجريح الى الصيدليّة...».

هرع الكوميسير في البداية الى رصيف المرفأ وشاهد دركيّاً يركض شاهراً مسدّسه. وكانت السماء ملبّدة كما لا تكون عادةً. لحق ميغريه بالرجل.

ـ لقد شاهدتُ رجلاً وامرأة يخرجان من باب المتجر... وكنت أقوم بجولة تفقديّة هناك قبلاً... وكاد الرجل أن يصطدم بي - لا فائدة الآن من الركض... لا بدّ انهما أصبحا بعيدين!...

ـ أخبرني بما جرى!

ـ سمعتُ جلبــةً في المتجــر حيث لم ألــح ضوءاً... فاقتــربتُ ومسدسي بيدي ومكثتُ أراقب... ثمّ فتح الباب.. وخرج منه رجلُ... ولكنّي لم أتمكّن من اعتقــاله... فقــد انهال بقبضته على وجهي وأوقعني أرضــاً... وسقط مني مسدسي... وجلّ ما كنت أخشاه هو أن يستولي عليه... ولكن لا!... عاد أدراجه الى الباب حيث كانت تنتظره امرأة... بدت عاجزة عن الركض... فحملها بين ذراعيه... ومــا كدت أنهض.. أيّهــا الكــوميسّــير حتّى... لكمة مثل هذه... أنظرا... إنّ أنفي ينزف... لقد ركضوا على طول الرصيف.. ولا بدّ أنهم التقّــوا حول الحوض... ومن هناك تتشعّب الأزقة ومنها ما يفضي الى المناطق الريفيّة القريبة.

كان الدركي يمسح أنفه بمنديله.

«كاد يقتلني!... إن قبضته أشبه بمطرقة...».

كانت جلبــة الأصــوات ما زالت تتناهى الى مسامعه من جهة الفندق الذي ظلّت نوافذه مضاءة. غادر ميغريه الدركي وانعطف عند زاوية الشارع ورأى الصيدلية وقد أغلق مصراعاها إلّا أن نوراً خافتاً كان يتسرّب من بابها المفتوح.

أمــام باب الصيدلية احتشد نحو عشرين شخصاً واستطاع الكوميسير أن يُنحّي بعضهم مستعيناً بمرفقيه.

ثمّ رأى رجــلاً ممــدّداً على الأرض ويــطلقُ انيناً رتيباً وعيناه شاخصتان في السقف.

كانت زوجة الصيدليّ، في قميص النوم، تحدثُ، بمفردها، من الضوضاء ما عجز الجمعُ عنه.

ولم يكن الصيدلي نفسه، الذي ارتدى سترةً فوق بيجامته، بأفضل حال منها، فقد كان مذعوراً يقلّب الدوارق ويفتح رزماً كبيرة من القطن الطبيّ.

«مَن هوَ؟» سأل ميغريه.

لم ينتظر الجواب فقد تعرّف الى بزّة الجمركي الذي مُزِّقت إحدى رجلي بنطاله. وبعد ذلك استطاع أن يتعرّف الى الوجه.

إنّه ذلك الجمركي الذي كان في نوبة حراسة يوم الجمعة المنصرم عند رصيف المرفأ، وشهد من بعيد تفاصيل الاعتداء الذي تعرّض له موستاغين.

وصل طبيب شديد الانهماك ونظر الى الجريح ثمّ الى ميغريه، وسأل:

«ماذا هنالك أيضاً؟...».

كان الدم يسيلُ على الأرض واستطاع الصيدلي أن يغسل الساق الجريحة بالماء الممزوج بالأوكسيجين فخلف فوق الأرضيّة أثراً من رغوة زهرية.

وفي الخارج راح رجل يروي، للمرّة العاشرة ربّما، ودون أن يبدو أقلّ تأثراً:

«كنتُ نائماً الى جانب زوجتي عندما سمعت دوياً أشبه بطلق ناري، ثم تبعته صرخة... وبعد ذلك لا شيء.. ران صمت مطبق لمدة خمس دقائق تقريباً!... لم أتمكّن من النوم متجاهلاً الأمر... وألحّت زوجتي علي بأن أذهب للتحقق مما جرى... وعندئذ سمعنا أصوات أنين بدا لنا أن مصدره الرصيف، أمام باب دارنا... فتحتُ

الباب... وكنتُ مسلّحاً... فطالعتني كتلة داكنة... وسرعان ما عرفتُ البزّة... فجعلتُ أصرخ لأوقظ الجيران، ثمّ أعانني صاحب متجر الفاكهة في نقل الجريح بسيّارته الى هنا...

ـ في أية ساعة سمعت الطلق الناري؟...

ـ منذ نصف ساعة بالضبط...».

أي خلال ذروة المشهد المؤثر بين إيمّا وصاحب آثار الأقدام!...

«أين تقيم؟...

ـ أنا صانع الأشرعة... لقد مررت بباب منزلي مراراً.. إنه يقع في الجهة اليمنى من المرفأ... أبعد بقليل من سوق الأسماك... عند تقاطع رصيف المرفأ وزقاق صغير... وإلى أبعد قليلاً تصبح المباني نادرة وتكاد تقتصر على الفيللات الفخمة.

عمد أربعة رجال الى نقل الجريح الى حجرة داخلية حيث مدّدوه فوق كنبة. وكان الطبيب يزودهم بتعليماته، حين سمع في الخارج صوت العمدة يسأل:

«الكوميسّير هنا..؟».

فمثل ميغريه أمامه وقد دسَّ يديه في جيبي بنطاله.

«لا بدّ أن تُقِرَّ يا حضرة الكوميسّير.. ».

إلاّ أن نظرات محـدِّثـهِ الباردة جعلت العمدة يفقد شيئاً من لهجته الواثقة.

«إن صاحبنا هو الجاني، أليس كذلك؟

ـ لا!

ـ وكيف لك أن تعلم؟...

ـ أعلم لأنني كنتُ أراهُ لحظة وقوع الجريمة كما أراك الآن...

ـ ولم تعتقله؟

ـ لا!

ـ وقيل لي أيضاً أن دركيّاً قد تعرض لاعتداء...

ـ بالضبط.

ـ هل تعي جيّداً خطورة التبعات التي تترتب على مثلِ هذه الجرائم؟... فمنذ مجيئك الى هنا و...».

رفع ميغريه سمّاعة الهاتف.

«صليني بمخفر الدرك يا آنسة... أجل.. شكراً.. آلو! مخفر الدرك؟... المفوّض؟.. آلو! أنا الكوميسيرّ ميغريه... الدكتور ميشو لا يزال هناك، في رعايتكم بالطبع؟... ماذا تقول؟... أجل، لا بدّ انّك ستضمن... كيف؟... هناك دركي يحرس الفناء؟... حسناً.. أنا في الانتظار...

ـ أتعتقد ان الدكتور هو الذي...؟

ـ لا، على الاطلاق! أنا لا أعتقد شيئاً يا سيدي العمدة!... آلو!... أجل!.. لم يبرح مكانه؟... شكراً... أتقول انه نائم؟... حسناً.. آلو! لا! لا شيء محدداً..»

تنامت أصوات أنين من الحجرة الداخلية تبعها صوت ينادي:

يا كوميسيّر ...»

كان ذلك صوت الطبيب الذي راح يمسح يديه اللتين يغطيهما الصابون بفوطة جافة.

«بـإمكانك ان تستجوبه الآن... إنه جرح في أسفل الساق... ولا بد ان خوفـه كان أعـظم من ألمه... وينبغي القول أيضاً ان النزيف كان حاداً...»

كانت عينا الجمركي مغرورقتين واحمرّ وجهه حين أردف الطبيب قائلاً:

«إن كل الذعـر الذي استبد به ناجم عن اعتقاده بأن ساقه ستُبتر... ولكي يطمئن أقول له انه لن يرى أثراً للجرح خلال ثمانية أيام!...

كان العمدة جاثماً داخل إطار الباب.

«أخبرني كيف جرى لك هذا! قال ميغريه برفق وقد اقتعد حافة الكنبة. لا تخف... لقد سمعت ما قاله الطبيب...

ـ لست أدري ...

ـ هلّا حاولت؟ ..

ـ لقد أنهيت خدمتي اليوم عند العاشرة... منزلي لا يبعد كثيراً عن المكان الذي أصبت فيه...

ـ إذاً، لم تعد إلى منزلك مباشرة بعد الخدمة؟...

ـ لا! لاحظتُ ان مقهى «أميرال» لايزال مضاءً... وأردت أن أطلع على المستجدات... أقسم لك ان ساقي ملتهبة!...

ـ لا! لا! على الاطلاق! قال الطبيب جازماً.

ـ ولكني أقول لك ... حسناً! ما دمت تقول إنه خدش بسيط!... شربت كوبـاً من البـيرة في المقهى... ولم أصـادف هنـاك سوى الصحافيين ولم أجرؤ حتى على سؤالهم...

ـ من قدّم لك البيرة؟...

ـ إحدى خادمات الفندق، على ما أعتقد.. إذ انني لم أر أيمّا.

ـ وبعد ذلك؟

ـ أردت ان أعود إلى المنزل... مررت بمركز الخدمة حيث اشعلت سيكارتي من غليون زميلي... وسلكت رصيف المرفأ.. ثم انعطفت يُمنة... لم ألمح أحداً هناك.. وكان البحر جميلاً... وفجأة، ما ان اجتـزت أحـد المنعطفات حتى أ؟حسست بألم في ساقي قبل ان أسمع دوي الطلقة... كان ذلك كأن قطعة بلاط قد أصابت أسفل السـاق.. فوقعت أرضـاً.. ثم أردت ان أنهض... وتـراءى لي ان شخصاً ما قد فرّ هارباً.. لامست يدي سائلاً حاراً، ولست أدري كيف حدث ذلك، وأغمي عليَّ... حسبتُ أنني فارقت الحياة...

«عندما استعدتُ وعيي كان صاحب متجر الفاكهة واقفاً عند بابه لا يجرؤ على التقدم نحوي...

«هذا كل ما أعرفه

ـ ألم تر الجاني؟

ـ لم أر شيئاً... الأمور لا تحدث عادة كما نحسب... السقطة أولاً... وعلى الأخص عندما أدركت ان يدي كانت ملطخة بالدماء...

ـ أليس لك أعداء؟...

ـ على الاطلاق!... لقد انتقلت إلى هذه المدينة منذ سنتين... فأنا في الأصل من المناطق الريفية... ولم يتح لي طوال سنين خدمتي ان أصادف مهرّباً واحداً...

ـ هل تسلك دائماً الطريق نفسها عندما تعود إلى منزلك؟

ـ لا! .. إنها الطريق الأطول... ولكني نسيت ان أحمل علبة

ثقاب فعرّجت على مركز الخدمة خصيصاً لأشعل سيكارتي.. ولذلك بدل ان أسلك طريق المدينة سلكت طريق الميناء...

ـ الطريق أقصر عبر المدينة؟

ـ أقصر بقليل

ـ بحيث ان في استطاعة من يراك خارجاً من المقهى وسالكاً طريق الميناء ان يصل إلى المكان وان ينصب كميناً لك؟...

ـ بالتأكيد ... ولكن ما دافعه إلى ذلك؟... فأنا لا أحمل مالاً... ولم أتعرض لمحاولة سرقة...

ـ هل أنت واثق، أيها الكوميسير، ان المتشرد لم يغب عن نظرك طيلة السهرة؟...»

وكان في نبرة العمدة شيء من الحدّة. ثم دخل لوروا وبيده ورقة.

«برقية، وصلت عبر الهاتف من مركز البريد.. مصدرها باريس...»

فقرأ ميغريه:

«من قيادة الأمن العام إلى الكوميسير ميغرية، كونكارنو.

«طبقاً للإشارة التي تلقيناها حول أوصافه، تم القبض على جان غويار، الملقب سرفيير، مساء هذا الاثنين عند الثامنة، فندق «بلفو» ١ شارع «لوبيك» في باريس، لحظة دخوله الغرفة رقم ١٥. واعترف انـه جاء إلى باريس قادمـاً من بريست على متن قطار السـاعة السادسة. يزعم انه بريء ويُطالِب ان يتم التحقيق معه بحضور محامٍ. ننتظر التعليمات».

- ٨ -

زائد واحد!

«ربما كنت توافقني الرأي أيها الكوميسير انه حان الوقت لمناقشة بعض الأمور بجدية...»

تلفّظ العمدة بهذه الكلمات بلهجة احترام لا يخلو من الجفاء، وكان المفتش لوروا لا يعرف ميغريه جيّداً بعد ليدرك انفعالاته من طريقة نفثه لدخان غليونه. فمن بين شفتي الكوميسير شبه المطبقة انبثق خيط من الدخان الرمادي فما رفّت أجفانه مرتين أو ثلاثاً. ثم أخـرج ميغـريـه مفكّـرته من جيبه ونظر من حوله إلى الصيدلي والطبيب والفضوليين المحتشدين.

«سمعاً وطاعة، يا حضرة العمدة... هاك...

- أفضل ان ترافقني إلى داري حيث نتحدث حول كوب شاي.. سارع العمدة إلى القول. سيارتي مركونة أمام الباب... وسأنتظر حتى تفرغ من إسداء أوامرك..

- أية أوامر؟..

- ولكن.. القاتل... المتشرد... وتلك الفتاة...

آه! أجـل! في هذه الحال، إذا كان رجال الدرك لا يجدون ما يفعلونه الآن، فليراقبوا محطات السكة الحديد في الجوار...»

وكان مصراً على ان تعبّر ملامح وجهه عن القدر الأكبر من السذاجة.

«أما أنت يا لوروا فابرق إلى باريس بأن يرسلوا غويار مخفوراً إلى هنا ثم إذهب ونم».

صعد إلى سيارة العمدة التي يقودها سائق يرتدي بزّة سوداء. وقبل ان يصلوا إلى «السابل بلان» تراءت له فيللا بُنيت على حافة الضفة الصخرية المرتفعة، الأمر الذي يضفي عليها طابع القصور الاقطاعية. وكانت كل النوافذ مضاءة.

طيلة الرحلة لم يتبادل الرجلان جملتين مفيدتين.

«اسمح لي ان أرشدك إلى الطريق...»

وخلع العمدة معطفه الفرو بين يدي رئيس الخَدم.

«هل السيدة نائمة؟

ـ إنها تنتظر سيدي العمدة في غرفة المكتبة...»

كانت هناك بالفعل. وبرغم أعوامها الأربعين بدت شابة بجوار زوجها البالغ خمسة وستين عاماً من العمر. وحيّت الكوميسير بإشارة من رأسها.

«إذاً؟...»

وكرجل لا يُهمل اللياقات الاجتماعية انحنى العمدة ليقبّل يدها التي ظل مُمسكاً بها حين قال:

«لا تقلقي!.. لقد أصيب جمركي بجروح طفيفة... وآمل ان

تنتهي فصول هذا الكابوس الذي نعيشه بعد الحديث الذي سيدور بيننا، أنا والكوميسير...»

غادرت الغرفة يصحبها حفيف الحرائر وأسدل على الباب سجَفٌ من المخمل الأزرق.

كانت غرفة المكتبة فسيحة الأرجاء وقد لُبِّست جدرانها بالخشب المشغول وبدا السقف مكسواً بكمرات ظاهرة كما في القصور الريفية الانكليزية.

كانت المكتبة تحتوي عدداً لا بأس به من الكتب الفاخرة التجليد إلّا ان أقيمها وضع في مكتبة ذات واجهات مقفلة تحتل جانباً من الحائط.

بدا المكان فخماً بالفعل لا تشوبه نقيصة ذوق ويولّد انطباعاً بالرفاهية. وبرغم التدفئة المركزية كانت بضعة أعواد من الحطب تشتعل في موقد كبير.

لم يكن في دارة العمدة ما يشي بمثل ذلك البذخ المفتعل كما في فيللا الدكتور. ثم راح العمدة ينتقي من بين علب السيكار العديدة وقدّم واحداً لميغريه.

«لا، شكراً! أفضل غليوني، إذا كنت لا تمانع...

ـ تفضّل إجلس ... أتشربُ كأساً من الويسكي؟...»

ثم قرع جرس الخدمة وأشعل سيكاراً. وجاء رئيس الخدم ليقدم لهما الشراب. كان ميغريه يحرص، وعلى نحو متعمد ربما، على الظهور بمظهر البورجوازي الصغير الذي يُستضاف في دارة ارستقراطية. وبدا واجماً غائم النظرات.

وانتظر مضيفه ريثما يغادر الخادم.

«أنت تدرك جيداً أيها الكوميسير انه ينبغي ان نضع حداً لهذا المسلسل من الجرائم .. لقد جئت إلى المدينة منذ خمسة أيام... ومنذ خمسة أيام...»

أخرج ميغريه مفكرته المجلّدة.

«أتسمح لي؟... قال مقاطعاً. أنت تتحدث عن مسلسل جرائم... والحقيقة ان كل الضحايا مازالوا على قيد الحياة باستثناء ضحية واحدة... ميت واحد - هو السيد لو بوميري... أما حادثة الجمركي فلا بُدَّ انـك تدرك مثلي الحقيقة التالية: لو أراد الجاني ان يقتل الجمركي لما أصابه في ساقه... أنت تعلم جيداً من أي موضع تم اطلاق النار... وكان الجاني متوارياً عن الأنظار... ولديه متسع من الوقت للتسـديد جيداً... إلَّا إذا كانت تلك هي المرة الأولى التي يستخدم فيها مسدساً؟...».

رمقه العمدة بنظرات تعجّب وقال ممسكاً بكأسه:

«الأمر الذي يدعوك إلى الزعم...؟

ـ بأن الجاني تعمّد الاصابة في الساق... أو على الأقل إلى ان يصار إلى إثبات العكس...

ـ وهل تعمّد أيضاً إصابة السيد موستاغين في ساقه؟»

كانت نبـرة السخرية بادية في سؤاله، وسرت رعشة خفيفة في منخري العجوز. لقد أراد ان يحافظ على هدوئه وان لا يحيد عن لياقات التهذيب حيال ضيفه. إلَّا انه لم يتمكن من تدارك بعض الجفاء في صوته.

وأردف ميغريه بلهجة الموظف المثابر الذي يقدم تقريراً إلى أحد رؤسائه:

«اسمح لي ان أستعيد ملاحظاتي واحدة تلو الأخرى.. اقرأ هنا في تاريخ يوم الجمعة ٧ تشرين الثاني/نوفمبر: «رصاصة أُطلقت عبر صندوق بريد منزل شاغر في اتجاه السيد موستاغين. فتلاحظ أولاً ان لا أحد، ولا الضحية نفسها، كان يعلم مُسبقاً ان السيد موستاغين ستراوده في لحظة ما فكرة الاحتماء بعتبة المنزل لاشعال سيكاره... وهذا يعني ان الجريمة ما كانت لتقع لو لم تكن الرياح عاصفة!... والحال ان رجلاً مسلحاً كان يتربّص خلف الباب... فإما ان يكون مجرد معتوه وإما انه وقف هناك بانتظار أحد ما... والآن تذكر ساعة وقوع الجريمة!... الحادية عشرة مساء... وفي تلك الساعة تكون المدينة نائمة باستثناء شلة مقهى «أميرال»...

لا أحاول ان أستنتج. ولكن لنر قليلاً من هم الجناة المحتملون. السيد لو بوميري وجان سرفيير، ومعهما إيمّا، لا شبهة حولهم لأنهم كانوا في المقهى أثناء وقوع الجريمة.

«يبقى الدكتور ميشو الذي غادر قبل ذلك بربع ساعة، والمتشرد ذو القدمين المذهلتين. بالاضافة إلى مجهول سنطلق عليه اسم «X». هل اتفقنا؟

«أضف على هامش كل هذا ان السيد موستاغين لم يمت وانه سيتعافى في غضون اسبوعين.

«لننتقل إذاً إلى الجريمة الثانية. في اليوم التالي، السبت، كنتُ في المقهى برفقة المفتش لوروا. وكنا على وشك احتساء الشراب المقبّل برفقة السادة ميشو ولو بوميري وجان سرفيير، عندما ساورت

الدكتور بعض الشكوك أثناء تمعنه بكأسه. وأثبتت التحاليل المخبرية ان زجاجة «البرنو» مسمومة.

«الجناة المحتملون: السادة ميشو ولو بوميري وسرفيير، بالإضافة إلى فتاة الخدمة إيمّا والمتشرّد ـ الذي قد يكون استطاع الدخول إلى المقهى خلسة خلال النهار ـ وأخيراً، مجهولنا العزيز الذي نسميه «X ».

«لنتابع. صباح يوم الأحد فُقِدَ جان سرفيير. عثر على سيارته وبداخلها آثار دماء، على مقربة من منزله. وكانت صحيفة «لو فار دو بريست» قد تلقّت، قبل العثور على السيارة، ملخصاً للأحداث كان الغرض منه إثارة الذعر بين سكان كونكارنو.

«والحال ان سرفيير قد شوهد أولاً في بريست، ثم في باريس حيث أقام مُتخفياً وحيث أراد ان يكون بملء إرادته.

«المشبوه الوحيد هنا: سرفيير نفسه.

«في اليوم ذاته، الأحد، يحتسي السيد لو بوميري كأساً برفقة الدكتور، ثم يعود إلى منزله حيث يتناول طعام العشاء ويفارق الحياة مسموماً بمادة الاستركنين.

«المشبوهون: في المقهى، ان ثبت ان المادة السامة قد دسّت هناك، الدكتور، إيمّا وأخيراً صاحبنا «X ».

وهنا لا بد من القول ان المتشرد ليس في عداد المشبوهين في هذه الحادثة لأن الصالة لم تخل من الروّاد لحظة واحدة ولم يُدَس السم في الزجاجة بل في كأس وحيدة.

«أما إذا كان السم قد دُس له في المنزل، فالمشبوهون عندئذٍ هم:

المالكة، والمتشرد وصاحبنا الأبدي «X».

«مهلاً لا تتعجل الأمور... ها قد وصلنا إلى الختام. هذا المساء يُصاب جمركي برصاصة في ساقه خلال مروره في شارع مقفر... الدكتور ميشو مازال في السجن حيث وضع تحت حراسة مشددة... ولو بومـيري أصبح في عداد الأموات... وسرفيير في باريس في رعاية الأمن العام... أما إيمّا والمتشرد فقد كانا، لحظة وقوع الحادث منهمكين بالعناق وبالتهام دجاجة مشوية...

«إذاً هناك مشبوه واحد: «X» ...

و«X» هذا شخص لم نصادفه من قبل خلال الأحداث التي توالت... شخص قد يكون ارتكب كل هذه الجرائم كما قد يكون ارتكب فقط هذه الجريمة الأخيرة...

«ولا نعلم من يكون هذا الشخص. لا نعرف أوصافه... والمعلومة الوحيدة بشأنه. ان مصلحته اقتضت ان يرتكب جريمة في هذه الليلة... ودافعه إلى ذلك قوي جداً... ذلك ان الرصاصة لم تطلق من مسدس متسكّع ما

«والآن، لا تطلب مني ان أعتقل هذا الشخص .. فأنت تدرك جيداً، يا سيدي العمدة، ان كل مقيم في هذه المدينة، وخصوصاً كلّ من له صلة بالشخصيّات الرئيسة المتورطة على نحو ما بهذه القضيّة، وعلى الأخصّ منهم أولئك الذين يرتادون مقهى «أميرال»، كلّ هؤلاء يمكن اعتبارهم في عداد المشبوهين بأن يكون أحدهم هو «X».

«حتّى أنت...».

تلفظ ميغريه بالعبارة الأخيرة بشيء من الاستخفاف وقد ألقى ظهره على مسند الكنبة ومدّ ساقيه في اتجاه نار الموقد.

ارتعد العمدة لهولِ المفاجأة.

«آمل أن لا تكون القضيّة سوى قضيّة ثأر بسيطة...».

عندئذٍ نهض ميغريه بغتةً ونفض غليونه فوق جمر الموقد ثم راح يسيرُ قرب المكتبة مقلّباً نظره بين رفوفها وقال:

«ولا قضيّة ثأر! أتريد بعض الخلاصات؟ إذاً، هاك بعضها... ما حرصتُ على اثباته ببساطة هو أنّ قضيّة مثل هذه ليست مجرد عملية روتينية للشرطة يُمكن أن تنجز من وراء طاولة المكتب وعبر بعض الاتصالات الهاتفيّة. وأضيفُ يا سيّدي العمدة وبكلّ الاحترام الذي يقتضيه مني منصبُك، انني حين أتولّى قضيّة ما على عاتقي، لا أطلب، قبل كلّ شيء، إلّا أن يدعني الآخرون وشأني!».

كان يتكلّم بتلقائية مفاجئة... فمنذ أيّام والكوميسّير يكتم ما يعتمل في صدره كجمرٍ تحت رماد. ولذلك ربّما احتسى جرعةً من الويسكي تعينه على استعادة هدوئه، ثمّ التفت نحو الباب التفاتة رجلٍ قال ما كان يودّ قوله وما عاد ينتظر إلّا الإذن بالمغادرة.

مكث محدّثه صامتاً لبعض الوقت، شاخصاً برماد سيكاره الأبيض. وفي آخر الأمر نفض الرماد في وعاء من البورسلين الأزرق، ثمّ نهض متمهّلاً وحاول أن ينظر في عينيّ ميغريه.

«اسمعني جيداً، أيّها الكوميسّير...».

وبدا كأنّه يقلّب عباراته مدقّقاً فيها لأنه تحدّث بتقطّع، وتفصل بين العبارة والأخرى فترات، من الصمت.

«ربّما كنتُ مخطئاً إذ أبديت في لقاءاتنا القصيرة بعض الالحاح ونفاذ الصبر...».

كان كلامه هذا مفاجئاً بعض الشيء. وخصوصاً ضمن هذا الاطار حيث بدا الرجلُ المسن أعرقُ نسباً مما كان عليه من قبل، بشعره الأبيض وسترته المطرّزة بالحرير وبنطاله الرمادي المتقن الثنية.

«لقد بدأت أقدّرك حقّ قدرك.. ففي غضون دقائق قليلة استطعت بخلاصة بسيطة للأحداث أن تجعلني ألمس بإصبعي معطيات اللغز المحيّر والمعقّد أكثر مما كنتُ أحسب أو أظنّ، وهو أساسُ هذه القضيّة... واعترف لك أن تجاهلك لأمر المتشرد هو سبب انزعاجي منك...».

كان قد دنا من الكوميسّير ولمس كتفه بيده.

«وأرجو أن لا تحفظ لي ضغينة... فأنا أيضاً أحمل على عاتقي تبعات مسؤولية كبيرة...».

لم يُبد ميغريه ما يعينُ على التخمين حول حقيقة مشاعره إذ مكثَ هناك منهمكاً بحشو غليونه بأصابعه الثخينة. كانت حافظة تبغه عتيقة. وراح يجيلُ بصره، عبر الواجهة، على الأفق الفسيحِ الذي يحدّ البحر.

«ما هذا النور؟ سأل بغتةً.

ـ إنها المنارة...

ـ كلّا! أقصد ذلك النور الضعيف الى الجهة اليُمنى...

ـ إنه منزل الدكتور ميشو...

ـ هل عادت الخادمة من إجازتها؟

ـ كلّا! إنها السيدة ميشو، والدة الدكتور التي عادت من سفرها بعد ظهر اليوم...

ـ هل تحدّثت اليها؟...».

بدا لميغريه أن مضيفه قد استاءَ بعض الشيء.

«جُلّ ما في الأمر أنها ذهلت لغياب ابنها... فجاءت لتسأل... وما كان لي إلّا أن أحيطها علماً بأنّه موقوف وأوضحت لها انه مجرّد تدبير احترازي...انه تدبير احترازي، أليس كذلك؟... وطلبت منّي أن أسمح لها بزيارته في السجن... أنت لم تكن موجوداً في الفندق ولا أحد يعلم أين نعثر عليك... فأخذتُ على عاتقي أن أعطي الإذن بهذه الزيارة...

«ثمّ عادت السيدة ميشو قبل موعد العشاء بقليل للسؤال عن آخر المستجدّات. فاستقبلتها زوجتي ودعتها لتناول طعام العشاء الى مائدتنا...

ـ أهما صديقتان؟

ـ يمكن القول، إن شئتَ! والأصحّ أنها علاقات حسن جوار.. فخلال فصل الشتاء تكاد كونكارنو أن تكون مقفرة».

عاود ميغريه مشيه في أرجاء غرفة المكتبة.

«إذاً، كنتم ثلاثة الى مائدة العشاء؟...

ـ أجل... وليست المرّة الأولى... لقد حاولت قدر المستطاع أن أطمئن السيّدة ميشو التي بدت متأثرة جدّاً بالتدابير في مخفر

الدرك... لقد عانت الأمرّين في تربية ابنها الذي لم يكن يوماً مثل الصحّة والعافية...

ـ ألم يتطرّق الحديث الى موضوع لو بومّيري وجان سرفيير؟..

ـ كانت لا تحبّ لو بومّيري... وتتهمه بأنّه هو من يستدرج ابنها الى تعاطي المسكرات... فالحقيقة...

ـ وماذا عن سرفيير؟

ـ كانت لا تعرفه جيّداً... فهو ينتمي الى بيئةٍ مختلفة... صحافي من الدرجة الثانية، علاقة تقتصر على رفقة المقهى، إن شئتَ، شابٌ مُسلٍّ وظريف... ولكنّها، مثلاً، لا تستقبل زوجته ذات الماضي المريب... إنها مدينة صغيرة يا كوميسّيرا.. وفي مثل هذه الحال ينبغي الالتفات الى هذا النوع من الاعتبارات.. وهذا يفسّر بعض ردود فعلي.. فكيف لك أن تدرك صعوبة العمل الحكومي في وسطٍ من صيادي السمك، فضلاً عن نزقِ أرباب العمل وفئات من البورجوازية التي...

ـ في أية ساعة غادرتكما السيّدة ميشو؟

ـ نحو العاشرة... لقد أقلّتها زوجتي بالسيّارة.

ـ هذا النور يؤكد لنا أن السيّدة ميشو لم تنم بعد...

ـ إنها عادتها... وعادتي أنا أيضاً!... فعندما يبلغ واحدنا سناً معينة لا يعود في حاجةٍ لساعاتٍ عديدة من النوم... إذ تجدني في ساعة متأخرة من الليل جالساً هنا اقرأ أو أقلّب صفحات الملفّات...

ـ وهل أعمال آل ميشو مزدهرة؟».

شُبهة انزعاج لم يلبث أن تداركها.

«ليس بعد... أعني ليس قبل أن ترتفع قيمة الأراضي في «السابل بلان»... نظراً للصلات المتنفّذة التي تربط السيّدة ميشو ببعض رجالات باريس، وأعتقد أن انتظارها لن يطول... لقد بيعت بعض القطع المفرزة.. وخلال فصل الربيع سيباشرون البناء... وخلال رحلتها الأخيرة تمكنت تقريباً من اقناع مصرفي كبير، لا أستطيع أن أطلعك على اسمه، بأن يُشيد فيللا فخمة عند قمة الضفة الصخرية المرتفعة...

ـ سؤال آخر، يا حضرة العمدة... مَنْ كان يمتلك هذه الأراضي قبل مشروع آل ميشو؟».

فلم يتردّد لحظة واحدة وأجاب.

«أنا! إنها جزء من ميراث عائلي، بالاضافة الى الفيللاّ. وقبل أن يقـرّر آل ميشـو تملكهـا كانت مجرد أرض بور لا تنبت فيها إلا الأشواك والأعشاب البريّة...».

وفي تلك اللحظة انطفأ النور البعيد.

«أتـريـد كأسـاً اخرى من الويسكي، أيّها الكوميسّير؟... إنَّ السائق سيقُلك الى الفندق بالطبع...

ـ أشكر لك مودّتك وضيافتك ولكني أعشق المشي، وعلى الأخصّ حين أشعر بالرغبة في التفكير...

ـ ما رأيك بقضيّة الكلب الأصفر... اعترف لك أنّه الجزء الذي يُحيّرني في أكثر من أي شيء آخر... الكلب الأصفر وقضيّة «البرنو» المسموم!... ذلك أن...

إلاّ أن ميغريه راح يبحث بعينيه عن قبّعته ومعطفه في أرجاء

الغرفة. ولم يستطع العمدة إلّا أن يقرع جرس الخدمة.

«ملابس الكوميسّير يا دلفان!».

وران صمت مطبق وعميق حتّى تناهت جلبة ارتداد الموج، مكتومة ومنتظمة، على القاعدة الصخرية التي تقوم عليها الفيللا.

«ألا تريد أن يُقلك السائق؟...

- لا، شكراً...».

كان بعض الضيق يُخيّم على لقاءِ الرجلين كما تتريث بقايا دخان السكائر وتشكل دوائر بين المصابيح الكهربائية المعلّقة في السقف.

«أسأل نفسي ماذا بشأن الغد وكيف ستكون الحالة المعنوية لدى الأهلين... إذا كان البحر هادئاً سيتهمك الصيّادون بأعمالهم ولن يحتشدوا في طرقات..».

تناول ميغريه معطفه من يدِ رئيس الخدم ومدّ يده الثخينة، كان العمدة يودّ أن يطرح المزيد من الأسئلة إلّا أنه بدا متردّداً بسبب وجود الخادم.

«كم ستستغرق هذه القضيّة من وقت، في اعتقادك...».

كانت الساعة تُشير الى الواحدة بعد منتصف الليل.

«آمل أن ينتهي كلّ شيء مساءِ هذا اليوم...

- بهذه السرعة؟... وبرغم ما قلته لي منذ قليل؟.... إذاً أنت تعتمد على غويار؟... إلا إذا...».

وإذا أدرك ميغريه أن الوقت قد تأخّر هَبط السلم. أراد العمدة

ان يتلفظ بعبارة آخيرة إلاّ انه لم يعثر على الكلام الذي قد يعبّر عن مشاعره

«أشعر بالحرج إذ أدعك تغادر سيراً على الأقدام.. في مثل هذه الدروب...».

أغلق الباب. وسلك ميغريه طريقه، وفوق رأسه سماء شاسعة تلبّدت بغيوم كثيفة، لُعبتُها أن تعبر مسرعةً حاجبةً القمر لثوانٍ.

كانت الرياح قارسةً، إذ تهبّ من عرض البحر، عابقةً برائحة فضلات الأسماك المكوّمة فوق رمل الشاطىء.

مشى الكوميسير متمهلاً، يداه في جيبيه وغليونه بين أسنانه. ولمح من بعيد أنوار غرفة المكتبة تطفأ ثمّ تضاء أضواء اخرى في الطبقة الثانية فتبدو خافتة مكتومة بسبب الستائر المسدلة على النوافذ.

لم يسلك الطريق عبر المدينة بل سار على طولِ الخط الساحلي كما فعل الجمركي وتوقف لثوانٍ عند التقاطع حيث أصابته الرصاصة. بدا كلّ شيء ساكناً. فقط بعض الأضواء العموميّة المتباعدة. كانت كونكارنو نائمة.

عندما وصل الى الساحة طالعته الأنوار المنبعثة من واجهات المقهى تبثُّ اضاءتها السامّة فتعكّر صفو الليل.

دفع الباب. وكان صحافي يُملي خبراً عبر الهاتف:

«لا أحد يعلم حول مَنْ تدور الشبهات. الناس في الشوارع يتبادلون نظرات الريبة والقلق أيكون هذا الذي أصادفه هو القاتل؟ أوربّما كان ذلك الآخر؟ لم تشهد المدينة في سابق عهدها مثل هذه الأجواء المشحونة بالغموض والخوف..».

كان صاحبُ المقهى ممتقع الوجه قد جلس خلف طاولة الصندوق. وعندما رأى الكوميسّير أراد أن يحدّثه عن هواجسه المعتادة.

حالة الفوضى التي تعمّ المقهى. الصحف المهملة على الطاولات، الكؤوس الفارغة والمصوّر الذي انهمك بتجفيف صوره فوق المدفأ الكهربائي.

دنا المفتش لوروا من رئيسه.

«إنها السيّدة غوبيار» قال بصوت خفيض وقد أشار الى امرأة بدينة متهالكة فوق مقعد.

نهضت ومسحت دموعها.

«أخبرني يا كوميسّير!... أصحيحٌ ما يُقال؟... ما عدتُ أدري مَن أصدّق... يبدو أن جان لا يزال حيّاً يُرزق؟... لكنّه أمر مستحيل، أليس كذلك؟ أن يفتعل هذه اللعبة السخيفة!... يستحيل أن يصنع بي كلّ هذا!... أن يُسبّب لي هذا القدر من الذعر والقلق!.. يبدو لي أنني سأفقد صوابي!.. تراهُ ماذا يفعل في باريس؟.. أخبرني!... ولماذا يذهب اليها من دوني!...».

كانت تنتحب، تنتحب كالنساء اللواتي يُجدن البكاء، إذ لا تعوزهنّ غزارة الدموع السيّالة على الخدين حتّى أسفل الذقن فيما احدى اليدين تضغط على الصدر.

وكانت تغصّ بنخيرها وتبحث عن منديلها وعلاوةً على ذلك تريد أن تواصل كلامها.

«أقسم لك أنّ هذا الأمر مستحيل!... أعلم جيّداً أنّه كان يحبّ

النسـاء قليلاً... إلّا انه ليس من النوع الذي يرتكب حماقة مثل هذه!... كان يعـود اليّ دائمـاً ويسـألني الغفـران... أوتـدرك قصدي؟... يقولون...».

وأشارت الى الصحافيين.

«... يقـولون إنّـه تعمّد تلطيخ مقعد السيّارة بالدماء لاقناع الشرطة بوقوع الجريمة... لو كان ذلك ما أراده فعلاً، فهذا يعني أنّه كان عازماً على الرحيل إلى الأبد! وأنا أعلم جيّداً أنّه لا بدّ أن يعود! وأنّه ما كان لينغمس في مغامراته المشبوهة لو لم يستدرجه اليها كلٌّ من السيّد لو بوميري.. والدكتور.. والعمدة!.. وكلّ هؤلاء كانـوا يبخلون علي بالتحيّة حين أصادفهم في الطريق، لأن امرأة مثلي لا تليق بمكانتهم الاجتماعية!...

«قيـل لي انـه معتقل... أرفض أن أصدق... ما الجناية التي ارتكبهـا؟... كان يكسب من المال ما يكفي لأن نحيا كما نحيا... وكانت حياتنا الزوجيّة سعيدة برغم المغامرات العابرة التي يسعى اليها بين حين وآخر...».

رمقها ميغريه، وتنهّد عميقاً وتناول كأساً من على الطاولة وكرع محتواه بجرعة واحدة ثمّ تمتم قائلاً:

«أرجو المعذرة يا سيّدتي... يجب أن أنام...

ـ أتعتقد أنت أيضاً أنّه مذنب؟...

ـ أنا لا أعتقد شيئاً على الاطلاق... كوني مثلي يا سيّدتي... إن غداً لناظره قريب...».

وصعـد السلم بخطوات متثاقلة فيما الصحافي الذي لم يترك

سماعة الهاتف لحظة واحدة أنهى نصّه بهذه العبارة المستوحاة من كلام الكوميسّير:

«في آخر ما وردنا من أنباء أن الكوميسّير ميغريه عازم على كشف ملابسات هذه القضيّة يوم غد...

وأضاف بنبرة مختلفة:

«هـذا كلّ شيء يا آنسـة... واحرصي على أن يُنشر هذا النصّ كاملاً... فقد لا يشاطرني رئيس التحرير مثل هذا الرأي... أدرك ذلك... لأنه ليس داخل المعمعة..».

وبعد أن أقفل الخط دسّ مفكرته في جيبه وقال:

«مشروب ساخن، يا سيّد!... كثير من الروم وقليل من الماء الساخن...».

وفي الأثناء قبلت السيّدة غويار أن يرافقها أحد الصحافيين في طريق عودتها الى المنزل. ولم تكفّ عن ترداد ما قالته عن حياتها الخاصة:

«صحيـح أنّـه يحبّ النساء قليلاً... ولكن أنت تعلم جيداً يا سيّد!... كلّ الرجال يفعلون...!».

- ٩ -

العلبة المصدّقة

بدا ميغريه في صبيحة اليوم التالي، باشّاً رائق المزاج، فتجرّأ المفتش لوروا على اللحاق به والتحدّث اليه، حتّى أنه جازف بطرح بعض الأسئلة.

بأية حال كانت بوادر انفراج تخيّم على أجواء المدينة دون أن يُعرف سببٌ لها. وربّما مردّ ذلك التحسُّن الذي طرأ على حالة الطقس. إذ بدت السماء وكأنها غسلت لتوّها، صافيةً زرقاء وإن شاحبة تتراءى في قبّتها بقيّة من تلبُّد خفيف. ولذلك كان الأفق المترامي على مدّ البصر يتبدّى كأنّ الغشاوة السماوية قد ثقبت، فبان المدى خلفها. وكان البحر رائقاً ملتمع الصفحة انبثقت من زرقته أشرعة كثيرة كأنها بيارق غرزت فوق خارطة عسكرية.

والحالُ أنّ كونكارنو لا تحتاج لأكثر من أشعّة شمس ولو واهنة لكي تتبدّل كليّاً، إذ تبدو عندها أسوار البلدة القديمة، المغمّة عادةً أيامَ المطر، وكأنّها طليت بأبيض برّاق ومبهج.

كان الصحافيون في الأسفل يتبادلون الأحاديث حول فنجان قهوة بعد مشقة الأيام الثلاثة المنصرمة، وكان أحدهم لا يزال مرتدياً بذلة فوق البيجاما ومنتعلاً خفّيه.

دخل ميغريه الى غرفة إيمّا، أو الأحرى الى غرفة السطوح التي تقيم فيهـا، ورأى أن الكوّة في أحد الجدران تطلّ على الزقاق أما السقف المـائل فيكاد لا يتيح الوقوف بطول القامة إلّا في نصف مساحة الحجرة.

كانت الكـوة مفتـوحـة. وكان الهواء بارداً لا يخلو من لمسات الشمس الدافئة. في الجهة المقابلة من الزقاق انتهزت احدى النساء ذلك الصبـاح المشمس لتنشر غسيلها أمام النافذة. فيما تناهت ضوضاء تلاميذ، في فترة استراحة، من ملعبٍ ما في الجوار.

فقال لوروا الذي اقتعد حافة السرير الحديدي الصغير:

«مـا زلت لا افهم جيّـداً الخطط التي تعتمدها في عملك أيّها الكوميسّير، ولكنْ أعتقد أنني أستطيع الآن أن أخمّن بعضها...».

رمقه ميغريه بعينيه الباشّتين ونفث سحابة كثيفة من دخان غليونه.

«أنت محظوظ، يا صديقي العزيز! خصوصاً في ما يتعلق بهذه القضيّة التي اعتمدت فيها خطة أن لا يكون لدي أية خطة... ان أردت نصيحتي، وإن أردت فعلاً أن تحرز تقدّماً مهنياً، حاول أن لا تجعلني قدوةً لك، وأن لا تسـارع الى استخـلاص نظرياتٍ ما انطلاقاً مما افعله أنا...

... ومـع ذلك.. الاحـظ أنّـك توصّلت الى جمع بعض القرائن الملموسة، بعد...

ـ بالضبط، بعد! بعد كل شيء! أي بعبارة أخرى، لقد باشرت تحرّياتي من طرف الخيط الأخير وبالعكس. إلّا أن هذا لا يعني

انني في قضيّة أخرى لن أباشر تحرّياتي من طرف الخيط الأوّل وبالتدرج... انها مسألة مزاج ومناخ... ومسألة ما تولّد لديك الوجوه من انطباع أوّلي... عندما وصلت الى هذا المكان طالعني وجه أغواني فحرصتُ على تتبع أثره...».

إلّا أنّه لم يذكر اسم صاحب الوجه. أزاح شرشف سرير كان قد عُلّقَ بمثابة فاصلٍ يحجبُ خزانة ملابس. وكانت الخزانة لا تحتوي إلّا ثوباً بروتونياً من المخمل الأسود، ولا بدّ أن إيمّا كانت تحتفظ به لأيّام الأعياد.

فوق منضدة الزينة، مشطٌ ذو أسنان عديدة مكسورة، ومشابك شعر وعلبة مسحوق الأرز الزهري الفاقع. ثمّ عثر الكوميسّير على بغيته في أحد الأدراج: علبة مطعمة بالأصداف كتلك التي تباع عادةً في كافة أسواق المنطقة الساحلية. وكانت العلبة التي ربّما حصلت عليها إيمّا منذ عشر سنوات وتنقّلت بين أيدٍ لا يعلم سوى الله لمن تكون، تحمل الكلمات التالية: «تذكار من أوستاند».

كانت تنبعث منها رائحة كرتونٍ بالٍ وغبار وعطر وورقٍ مصفرّ وجلس ميغريه بجانب رفيقه يقلّب بأصابعه الثخينة محتويات العلبة.

سبحة ذات حبيبات مُضلّعة من الزجاج الأزرق، ولها شرّابة دقيقة من الفضّة، ومدالية القربانة الأولى، قارورة عطر فارغة ربّما احتفظت بها إيمّا لأناقة تصميمها والأرجح انها عثرت عليها في غرفة احدى نزيلات الفندق.

وردة من ورق، ذكرى متبقيّة من سهرة راقصة أو من احتفال، لونها أحمر فاقع.

وبجـانبهـا صليبٌ صغـير من ذهب، وهو من دون شك أثمن محتويات العلبة.

ثمّ رزمة من البطاقات البريديّة. البطاقة الأولى حملت صورة فندق كبير في كان. وعلى مقلبها كتب بخط امرأة:

«حـريٌّ بك أن تأتي الى هنـا بدلَ مكوثك في ذلك الجُحر حيث الشتاء متواصل. وهنا نكسب جيّداً. نأكل قدر ما نشاء. أقبّلك.

«لويز».

التفت ميغريه الى المفتش وأعطاه البطاقة، ثمّ تمعّن في احدى تلك الصور التي تُلتقط عادةً في سوق الأعياد كجائزةٍ لرماية موفّقة.

كان وجه الرجل محجوباً بالبندقيّة التي تنكبّها وقد أغمضَ عيناً ليُحكِم التسديد. بدا ضخم الجثة وقد اعتمر كسكيت بحّار. فيما وقفت إيمّا مبتسمةً أمام المصوّر وقد تشبّثت بذراعه. وفي أسفل البطاقة هذه العبارة: كويمبر.

ثمّ رسالة شبه مهترئة لا بدّ أنها قُرأت مراراً وتكراراً:

«حبيبتي

«لقـد تم الاتفـاق والتـوقيـع: لقد أصبح لي مركبي الخاص. وسـأسميـه: «لا بيل إيمّا». لقد وعدني كاهنُ كويمبر بأن يُباركه خلال الأسبـوع القادم، بالمياه المباركة، والرمل والملح وكلّ شيء، وسيكـون هنـالك زجاجات شمبانيا حقيقيّة، لأنني أريد أن اقيم احتفالاً لن ينساه أهل المنطقة لسنوات طويلة.

«الأقساط ستكون مُرهقة في البداية، إذ يتوجّب عليّ أن أدفع للمصرف مبلغ عشرة آلاف فرنك في السنة. لكنّه مركب ضخم، مئة

باع مربّع من الأشرعة، ويُبحر بسرعة عشر عقد بحرية في الساعة. فكّري إذاً بالأرباح التي سأجنيها من نقلِ البصل من انكلترا. وهذا يعني اننا سنتمكن من اتمام زواجنا في وقتٍ قريب. لقد تدبّرتُ حتّى الآن حمولة الرحلة الأولى ويحاول البعض خداعي لأنني حديث العهد في المهنة.

« ألا تستطيعين الحصول على اجازة ليومين من ربّة العمل لكي يتسنّى لكِ حضور احتفال المعمودية، لأنّ الجميع هنا سيسكرون ولن تتمكني من العودةِ الى كونكارنو. لقد كان عليّ أن أقدّم عدداً من فناجين القهوة حُلوانَ المركب الذي أصبح راسياً في المرفأ وقد رفعت على صاريه راية جديدة.

«سأستقدم مصوّراً ليلتقط لي صورة على متنه وأرسلها لك. أقبّلك بمقدار حبّي لك في انتظار أن تُصبحي الزوجة الحبيبة

المخلص

«ليون»

*

* *

دَسَّ ميغريه الرسالة في جيبه وقد سَهَت عيناه في اتجاه الغسيل الذي نُشر عند الجهة المقابلة من الزقاق. لم يجد شيئاً آخر في العلبة المصدّفة، باستثناء مسكة ريشة من العظم ثبّت على طرفها عدسة زجاجيّة وقد نقش فوقها مدفن كنيسة نوتردام دولورد.

«أهناك من يُقيم الآن في الغرفةِ التي ينزل فيها عادةً الدكتور ميشو؟ سأل ميغريه.

ـ لا أعتقد. لقد نزل الصحافيون في الطبقة الثانية...».

عمد المفتّش الى تفتيش الحجرة، ارضاءاً لضميره، إلّا أنه لم يعثر على شيءٍ ذي بال. وبعد ذلك بدقائق كان في الطبقة الأولى يدفع باب الغرفة رقم ٣ التي لها شرفة مطلّة على المرفأ والمرسى.

كان السرير مرتّباً والأرضيّة مُلمّعة. وقد عُلّقت فوطٌ نظيفة على مشجب المغسلة.

كان المفتش يراقب الكوميسّير بنظرات فضولٍ لا يخلو من التشكك. وبالمقابل كان ميغريه يصفرُ لحناً خافتاً مجيلاً بصره في الأرجاء، ثمّ لاحظ منضدةً من خشب السنديان أمام النافذة وقد زينت بملف ورق ومنفضة سكائر.

احتوى الملف ورقاً أبيض يحمل كترويسة اسم الفندق ومعه مغلّفات زرقاء تحملُ الاسم نفسه. ولاحظ ميغريه أيضاً ورقتيْ نشاف كبيرتين، احداهما مشبعة بالحبر والأخرى تحمل آثار حروف غير مكتملة.

«اذهب وأحضر لي مرآة، يا صديقي!

ـ مرآة كبيرة؟

ـ سيّان عندي! مرآة أستطيع أن أضعها على المنضدة».

وعندما عاد المفتش وجد ميغريه واقفاً على الشرفة وقد دسّ أصابعه في فتحتي كمّيه، يُدخّن غليونه بحبورٍ ظاهر.

«أتكفي هذه؟...».

أُغلقت النافذة. ووضع ميغريه المرآة على الطاولة في وضعية مستقيمة، ثمّ وضع ورقة النشّاف قبالتها مُستعيناً بشمعدانين وجدهما فوق حافة الموقد.

انعكست الحروف في المرآة مشوّهة ناقصة لا تسهل قراءتها. فكان عليه أن يخمّن التتمات الممكنة.

«لقد فهمت الآن! قال لورو بلهجة المتذاكي.

ـ حسناً! إذاً اذهب واطلب من صاحب المحلّ أن يعطيك دفتر الحسابات.. أو أي شيء آخر كُتب بخط يدِ إيمّا...».

ونسخ الكلمات بالقلم الرصاص على ورقة.

«... أن أراك... الساعة... الشاغر... لأمر عاجل...».

وعندما عاد المفتش كان الكوميسّير قد ملأ فراغات النصّ على نحو تقريبي، فتحصل لديه النصّ التالي:

«يجب أن أراك. تعالَ غداً عند الحادية عشرة الى المنزل الشاغر بمحاذاة الساحة على مقربةٍ من الفندق. لأمر عاجل. فقط اقرع الباب وسأفتح لك».

«هوّذا دفتر الغسّالة الذي كانت إيمّا تدوّن فيه الحسابات! قال لورو.

ـ ما عدتُ في حاجةٍ اليه... الرسالة موقّعة... انظر هنا.. «مّا»... أي: «إيمّا»... وقد كتبت الرسالة في هذه الغرفة!...

ـ حيث كانت فتاة الخدمة تلتقي الدكتور؟» قال المفتش بشيء من الاستياء.

لم يَعْجَب ميغريه من لهجة الاستهجان التي مازجت كلام المفتش لعجز هذا الأخير عن الإقرار بصحة هذا الافتراض، وخصوصاً بعد المشهد الغرامي الذي شهده ليلة أمس.

«في هذه الحال تكون هي التي...؟

ـ مهلاً! مهلاً، يا صغيري! إيّاك والخلاصات المتسرّعة! وعلى الأخصّ إيّـاك والاستنتـاج!... في أية ساعة يصل القطار الذي سيحمل الينا جان غويار؟...

ـ في الحادية عشرة والدقيقة الثانية والثلاثين...

ـ هاكَ ما ستفعله يا عزيـزي!... أولاً ستقول للزميلين اللذين يرافقـانـه أن يأتيـا بالرجـل الى مخفـر الدرك حيث سأكـون في انتظاره... وسيصل الى المخفر عند الظهر تقريباً... وعليك ثانياً أن تتصل بالعمدة وتخبره أنّ من دواعي سروري أن ألتقيه في الساعة نفسهـا وفي المكان نفسه... انتظر قليلاً!... وبلّغ الرسالة نفسها للسيّـدة ميشـو التي تستـطيع الاتصال بها هاتفياً في الفيللا... وأخـيراً. من المحتمـل بين لحظة وأخرى أن يعتقل رجال الشرطة والدرك إيمّا وعشيقها... وعندئذٍ ترسلهما هما أيضاً الى المخفر وفي الساعة نفسها!... هل أغفلتُ أحداً ما!... يجب ألا يتمّ استجواب إيمّا في غيابي.. لا بلّ احرص على أن تلتزم الصمت...

ـ والجمركي؟...

ـ لا أحتاجه.

ـ السيّد موستاغين...

ـ أوه!... لا!... هذا كلّ شيء...».

في المقهى طلب ميغريه شراباً مسكراً من عصير الفاكهة، وراح يتذوقه بمتعة ظاهرة ثمّ قال مخاطباً الصحافيين:

«لقد بدأت الأمور تنجلي، أيها السادة!... وبامكانكم العودة الى باريس هذا المساء...».

ضاعفت نزهته الصباحية في الشوارع المتعرّجة داخل البلدة القديمة من حبوره. وعندما وصل الى مدخل المخفر الذي يظلّله علم فرنسي جديد، لاحظ أن المناخ، بقدرة الشمس القادرة وزهو الألوان الثلاثة وبياض الحائط المشعّ بالأنوار، أقربُ الى النشوة التي تسود يوم ١٤ تموز/يوليو.

كان دركي عتيق يقرأ صحيفة فكاهية وقد اقتعد كرسيّاً إلى الجهة المقابلة من البوّابة الضخمة. وبدا الفناء الخارجي الذي كُسيت أرضه ببلاط منفصل نبت الطحلب الأخضر بين خطوطه، وكأنّه فناء دير يُطبق عليه السكون.

«المفوّض؟...

- إنهم يشاركون في حملة التفتيش عن المتشرّد الذي تعرفه. جميعهم الملازم والمفوّض ومعظم عديد الرجال...

- والدكتور ألم يبرح مكانه؟...».

- ابتسم الدركي والتفت نحو نافذة الزنزانة المحصنة بشبكية الحديد.

«ليس هناك أي خطر!

- افتح الباب، لو سمحت؟».

وما أن فتح الباب حتّى صاح بصوتٍ مبتهج ودود:

«صباح الخير يا دكتور!... هل نمت جيداً على الأقلّ؟..».

إلّا أنه لم يرَ سوى وجهٍ شاحب شديد الهزال، وقد ظهر من تحت الغطاء الرمادي، فوق السرير النقّال. كانت عيناه ملتهبتين وقد غارتا عميقاً في محجريهما.

«إذاً ماذا؟ ألست على ما يرام؟...

ـ أنـا في أسـوأ حال... قال ميشو بمشقة وقد أنهض جذعه مُرتفقاً. إنّها كليتي...

ـ إنّهم يلبّون كلّ مطاليبك على الأقل، أليس كذلك؟

ـ أجل... أشكر لطفك...».

كان الدكتور قد استلقى مرتدياً ثيابه. فأخرج ساقيه من تحت الغطاء وجلس ثمّ مسح جبينه براحة يده. وفي الأثناء كان ميغريه يجلس مفرشخاً على كرسي ويرتفقُ مسندها، زاخراً بالصحة والحيويّة.

«ماذا أرى؟ يبدو أنّك طلبت يخنة البورغونيه!...

ـ أمي هي التي أتت بها يوم أمس... كم كنتُ أودّ تجنّب هذه الزيارة... لا بدّ أنها علمت بالأمر في باريس... فعادت...».

كان تغضّن الجفنـين يتّسـع حلقـاتٍ عريضة حتّى منتصف الخدّين غير الحليقتين اللذين ازدادا هزلاً. كما ضاعف مظهر بذلته المدعوكة وغياب ربطة العنق من ملامح العياء واليأس التي بدت عليه.

قطع كلامه إذ انتابته نوبة سعال.. حتّى أنّه بصق في منديله الذي تفحصه جيداً فيما بعد كما يفعل من يخاف السلّ ويراقب أعراضه بقلق.

«أما من أنباء جديدة؟ سأل بعياء

ـ لا بدّ أن الدركيين قد أطلعوك على ما جرى هذه الليلة؟

ـ لا... ماذا جرى...؟ ومَن الضحية...؟

والتصق بالجدار كأنّه يخشى أن يتعرض لاعتداء ما.

«لا شيء! عابر سبيل أصيب برصاصة في ساقه...

- وهل ألقيتم القبض على الجاني؟... لم أعد قادراً على تمالك نفسي، أيّها الكوميسّير!... ألا تقرّ بأن هذه الأمور تدفع بالمرء الى الجنون... الضحية من بين روّاد مقهى «أميرال»، أليس كذلك؟... نحن المستهدفون!... وأحاول عبثاً ان أخمّن السبب... أجل... ما السبب؟... موستاغين!... لو بومّيري!... غويار!... والسمّ الذي دسّ لنا جميعاً... وسترى أنّهم سينالون مني في آخر الأمر، هنا، وبرغم كلّ شيء!... ولكن لماذا، أخبرني؟...»

زال الشحوب عن وجهه. أصبح مُمتقعاً. وبدا مثيراً للشفقة في محاولته التعبير عن مشاعر الهلع، لا بل أشدّ ما في هذه المشاعر من بؤسٍ وفظاعة.

«لا أجرؤ على النوم... انظر الى تلك النافذة!... هناك شبكية من قضبان الحديد... لكنّها لا تقي الرصاص... ذات ليلة!... والدركي المكلّف بالحراسة قد يغفو قليلاً، أو قد يسهو قليلاً... لم أولد لأحيا حياةً مماثلة...! ليلة أمس، شربت هذه القنينة كي أنام...ولم يغمض لي جفن!... لقد كنتُ مريضاً!... فقط لو استطاعوا النيل من ذلك المتشرّد وكلبه الأصفر...

«هل ظهر الكلب مجدّداً؟... أما زال يجول حول المقهى؟... لا أفهم لماذا لا يُرديه أحدٌ ما برصاصة... هو وصاحبه!...

- لقد غادر صاحبةُ كونكارنو هذا المساء...

- آه!...»

وبدا أن الدكتور لا يُصدّق أذنيه.

ـ فوراً بعد... بعد اقترافه الجريمة الجديدة؟...

ـ لا، قبل أن تقع الجريمة!

ـ أيُعقل هذا؟.. لا، مستحيل! يجب أن...

ـ هذه هي الحقيقة! وأطلعتُ العمدة على تفاصيلها ليلة أمس... انه رجل غريب الأطوار، أقصد العمدة... ألا توافقني الرأي، ما رأيك أنت؟....

ـ أنا؟... لا أدري... أ...

ـ ولكنَّ العمدة هو الذي باعك الأراضي... كنت على صلةٍ وثيقة به... أي ما نسمّيه علاقة صداقة...

ـ لم تربط بيننا سوى علاقات عمل وحسن جوار...».

لاحظ ميغريه أن صوته استعاد نبرة الثقة، ونظراته أقلّ شروداً.

«ماذا قلت للعمدة؟...».

سحب ميغريه مفكّرته من جيبه.

«قلت له أن مسلسل الجرائم، أو الأحرى، محاولات القتل، لا يمكن أن تكون صنيع شخص نعرفه حالياً من بيننا... لن أستعيد هذه الجرائم بالتفصيل.. لذلك سأحاول الايجاز... ألا ترى أني أتكلم بموضوعيّة؟ كرجلٍ مختص... إذاً، من المؤكّد أنّك لم تطلق النار على الجمركي خلال الليل الفائت لأسباب ملموسة، ما يجعلك خارج إطار الشبهة... ولو بومّيري لم يُطلق النّار أيضاً، لأن جنازته غداً.. ولا غويـار الذي قبض عليه في باريس!... كما أن لا أحدَ

منهمـا كان خلف علبة بريد المنزل الشاغر مساءَ يوم الجمعة... وكذلك الأمر بالنسبة لإيمّا...

ـ وماذا عن المتشرّد صاحب الكلب الأصفر؟

ـ لقـد فكّرت ملياً بالأمر! ليس هو من دسّ السمّ للوبومّيري، وهذه الليلة كان بعيداً جداً عن مسرح الجريمة لحظة وقوعها... ولذلك حدّثت العمدة عن شخص مجهول، «X» غامض قد يكون هو مرتكب كلّ هذه الجرائم... إلاّ...

ـ إلاّ..؟

ـ إلاّ إذا كانت الجرائم ليست سِلْسلة بالفعل!... ولنفترض بدل الهجـوم الأحـادي الجـانب المـركّـز، وجـود معركة حقيقية، بين مـجموعتين، أو بين شخصين...

ـ ولكن في مثـل هذه الحـال، ماذا سيحـلّ بي، أنـا، أيّهـا الكوميسّير؟... إذاً الأعداء المجهولون يتسكّعون في النواحي.. أ..».

وامتقع وجهه مجدّداً وأمسك رأسه براحتيه.

«والحـال إنني مريض، وينصحني الأطبـاء بأقصى درجـات الهدوء والسكينة!... أوه! لا حاجة للرصاص أو السمّ للنيلِ مني... ذلك أن كليتي ستقوم بالواجب...

ـ كيف ترى أيها العمدة؟...

ـ لستُ أدري! لا أعلم شيئـاً!... انـه وريث عائلةٍ واسعـة الثراء... عاش في صباه حياة الترف والملذات في باريس... وكان يملك اصطبلاً خاصاً لخيول السباق... ثمّ تدارك أموره في الوقت

المناسب... وأنفذ قسماً من ثروته وجاء للإقامة هنا في منزل جدّه الذي كان، هو أيضاً، عمدة كونكارنو.. لقد باعني الأرض التي لا يحتاجها... وأعتقد أنه يطمح لمنصب المستشار العام وصولاً الى مجلس الشيوخ...».

نهض الدكتور وبدا شديد الهزال كأنّه فقد أكثر من عشرة كيلوغرامات من وزنه... ولو أنّه شرع في البكاء، في ثورة أعصاب، لما بدا الأمر مُستهجناً.

«ماذا تريد أن تعرف بالضبط؟... وغويار الذي يُعثر عليه في باريس في حين كنّا نعتقد... تراه ماذا يفعل هناك؟... ولماذا؟...

ـ سيتضح كلّ شيء عمّا قريب، إنّه سيصل الى كونكارنو.. لا بل وصل اليها بالفعل...

ـ هل قُبضَ عليه؟...

ـ لقد طُلب منه أن يرافق شخصين الى هنا... أما الاعتقال فأمر مختلف...

ـ وماذا قال؟...

ـ لا شيء! فهو لم يُسأل عن شيء!».

وفجأة حدّق الدكتور في عيني الكوميسّير. واحتقن الدمُ فجأةً في خدّيه.

«ما معنى هذا؟... من جهتي لديّ انطباع أن أحداً ما يفقد صوابه!... تحدّثني عن العمدة، عن غويار... وأشعر، أتسمعني؟، إنني، بين لحظة وأخرى، سأُقتل... وبرغم هذه القضبان التي لن تحميني!... وبرغم ذلك الدركي الأبله السمين الذي يحرس

الفنـاء!... ولا أريـد أن أمـوت!... لا أريد!... أعطوني مسدّساً لأدافع عن نفسي!... وإذا كنتم لا تريدون اقبضوا إذاً على أولئك الذين يريدون النيل منّي، الذين قتلوا لو بومّيري، ودسّوا السمّ في زجاجة الشراب...».

بدا مختلجاً من قمة رأسه حتّى قدميه.

«أنـا لستُ بطلاً! وليست مهنتي أن أستخفّ بالموت!... أنا انســان عادي!... ومـريض!... وقد عيل صبري لفرط ما قاومت المرض لأحيا... كلام بكلام!... ولكن ماذا تفعلون؟...»

ثمّ استدار حانقاً وضرب الحائط بجبينه.

«كل ما يجري يشبه المؤامرة... إلّا إذا كان المقصود أن أفقد صوابي... بلى! هناك من يتعمّد ذلك لكي يُحجر علي في مصحّ!... مَن يدري؟ ربّما تكـون أمي قد ضاقت بي ذرعاً؟ .. لأنني طالما حرصتُ أن أحتفظ لنفسي بحصتي من ميراث أبي!... لكني لن أدع أحداً ينال منّي...».

كان ميغـريه جالساً هناك لا يحرّك ساكناً. مكث في مكانه، في وسط الزنزانة البيضاء التي أضاءت أحد جدرانها أشعة الشمس، مُرتفقاً مسند الكرسي وغليونه بين أسنانه.

كان الدكتور يذرع أرض الزنزانة جيئةً وذهاباً وقد استبدت به حالة من الاضطراب أشبه بالهذيان.

ثمّ فجأةً تناهى الى سمعه صوتُ مرح، تُخالطه نبرة استهزاء، يقول على طريقة الأطفال:

«كوكو!...»

انتفض أرنست ميشو مُتلفتاً بين زوايا الزنزانة الأربع ثم راح يحـدّق بميغريه بثبات. وعندئذٍ رأى وجه الكوميسّير الذي انتزع غليونه من بين أسنانه وراح يمازحه غامزاً بطرف عينه.

بدا الصوت وكأنّه اشارة فصل بين مشهدين. وتسمّر ميشو في مكـانـه، رخواً متهالكاً. كأنه كتلة تذوب ولا يبقى منها سوى ظلّ وهمي ولا قوام له.

«أهذا أنت مَن...؟».

كان صوتـه بعيـداً كأنّه يصدر عن مكانٍ آخر، كصوت طائر المقماق الذي يولّد انطباعاً، إذ يصدر الكلام من بطنه، بأنّ السقف يتكلم أو مزهرية البورسلين.

كانت عينا ميغريه باشتين عندما نهض عن كرسيه وراح يتكلم بجديّة مُطَمْئنة تناقض التعبير الذي ارتسم على وجهه، فقال:

«تمـالك نفسـك يا دكتـور!... أسمـع وقـع أقـدام في الفناء الخـارجي... ومـا هي إلّا دقائق معدودة ويكون القاتل بين هذه الجدران الأربعة...».

أوّل من أدخله الدركي الى الزنـزانـة كان العمدة. ولكن وقع أقدام أخرى كانت تتناهى من الفناء الخارجي.

-١٠-

« لا بيل إيمّا »

«لقد طلبت مني المجيء أيها الكوميسّير؟...».

لم يتسنَّ لميغريه أن يُجيب إذ اجتاز بوّابة الفناء الخارجي مفتشان يرافقان جان غويار فيما بدا من ناحية الشارع، وعلى الجانبين حشد من الناس في حالة من الهياج والتململ.

كان الصحافي يبدو أصغر قامةً وأكثر سمنةً بين مرافقيه. يعتمر قبّعةً تعمّد أن ينزلها حتّى عينيه، كما غطّى أسفل وجهه بمنديل تجنّباً لفضول المصوّرين.

«من هنا! قال ميغريه مخاطباً المفتش. هلاّ أحضرتم لنا بعض الكراسي، لأنني أسمع صوت امرأة...».

وسمع صوت حاد يقول:

«أين هو؟... أريد أن أراه على الفور!... وسوف أعمل على اسقاط رتبتك، أيها المفتش... أسمعت؟... سأعمل على اسقاط رتبتك....».

كان ذلك صوت السيّدة ميشو، بثوبها البنفسجي، وحليّها، ومساحيقها الحمراء، وقد تسارعت أنفاسها استياء.

«آه! انت هنا يا صديقي العزيز...» قالت بغنج مخاطبة العمدة. أليست حكاية تفوق كلَّ تصوّر؟... يأتي هذا السيّد الشاب الى منزلي وكنتُ لا أزال في ملابس النوم... الخادمة في إجازة... فأقول له من وراء الباب انني لا أستطيع أن أستقبله فيلحّ علي، لا بل يطالبُ بحزم، وينتظر ريثما أنهي ارتداء ملابسي وزينتي زاعماً أن لديه أوامر صارمة باقتيادي الى هنا... انه أمر غريب...! وحين أفكّر أن زوجي كان نائباً، وكاد أن يصبح رئيس حكومة وأنّ هذا... هذا الوغد... أجل، الوغد!...».

كان استياؤها عارماً فلم تدرك حقيقة الموقف. إلّا أنها فجأةً رأت غوبار الذي أشاح بوجهه، وابنها الجالس على حافة السرير وقد غطّى وجهه براحتيه. دخلت سيّارة الى الفناء المشمس. وبدت ألوان البزّات النظاميّة لرجالِ الدرك. وراح الحشدُ يحدثُ ضوضاء مبهمة.

ولمنـع الناس من الدخول بالقوّة الى حرم المخفر أغلقت بوّابة العربات. لأنّ أول من جُرَّ جرّاً خارج السيّارة كان المتشرّد بذاته. فهو لم يقيد بالأصفاد في معصميه وحسب، بل أوثقت قدماه بحبل متين، فكان على معتقليه أن يحملوه كطرد.

بعده ترجّلت إيمّا من دون قيودٍ تكبلها وبدت مذهولةً كأنها في حلم.

«فكّوا قيود ساقيه!».

كان الدركيـون يشعـرون بالاعتزاز للمأثرة التي أنجزوها... فلا بدّ أن اعتقـال الرجل لم يكن بالأمر السهل، نظراً لما أصاب

بزاتهم النـظامية والآثار الواضحة على وجه السجين الذي كساه الدمُ وشفته المشقوقة النازفة.

أطلقت السيِّدة ميشو صرخة ذعر وتراجعت مُلتصقة بالجدار كأنهـا رأت ما تتقذر منه، فيما استسلم الرجل لمعتقليه دون أن ينبس ببنت شفة، ثمّ رفع رأسه وراح ينظر بامعانٍ من حوله.

«لا تحرّك ساكناً يا ليون.. هه!» قال ميغريه بلهجة تأنيب.

فبوغت الرجل وحاول أن يعرف صاحب الصوت.

«احضروا له كرسيّاً ومنديلاً...».

لاحـظ أن غويـار قد تسلل الى مؤخّـر الزنزانة، ووقف خلف السيّدة ميشو، وأن الدكتور مكث مرتعداً، لا ينظر الى أحد، أما قائد مخفـر الشرطة فمكث حائـراً لا يدرك الغرض من هذا الاجتماع الغريب ويسأل في سرّه عن دوره في كلّ هذا.

«حسناً، أغلقوا الباب!... وليتفضّل كل واحد منكم بالجلوس. . هل يستطيع المفوّض أن يقوم بمهمة الكاتب، يا حضرة الملازم؟... حسناً، فليجلس الى هذه المنضدة.... وأطلب منكَ أن تجلس أنت أيضاً يا سيّدي العمدة...».

كفّ الحشدُ في الخارج عن صخبة وضوضائه، ومع ذلك لبث هناك في الشارع مثل كتلة من الحياة الصفيقة وقد استبدت بها لهفة الانتظار.

حشا ميغريه غليونه وهو يذرع أرض الزنزانة جيئةً وذهاباً، ثمّ التفت نحو المفتش لوروا.

«قبل كلّ شيء يجب أن تتصل بنقيب الملاّحين، في كويمبر لتسأله

عمّا جرى للمركب «لا بيل إيمّا» منذ أربعة أو خمسة أعوام، وربّما ستّة...».

وما أن اتجه المفتش نحو الباب حتّى تنحنح العمدة راغباً في الكلام.

«بإمكاني أن أطلعك على ما جرى، أيها الكوميسّير.. إنها قصّة يعرفها جميع أهل المنطقة...

ـ تكلّم...».

تململ المتشرّد في ركنه مثل كلبٍ شرس. وكانت إيمّا لا تحيدُ بنظرها عنه وقد جلست على حافة الكرسي. لقد شاءت المصادفة أن تجلس الى جنب السيّدة ميشو التي فاح عطرها القوي برائحة البنفسج السكري.

«لم أرَ المركب، قال العمدة بتلقائية ظاهرة وربّما بشيءٍ من التكلّف. وكان مالكه يُدعى لو غلين، أو لو غليريك، الذي قيل عنه إنّه بحّار ماهر إلّا أنه حادّ الطباع... ومثل كافة مراكب المنطقة كان «لا بيل إيمّا» ينقل بضائع تجّار الخُضَر الانكليز.. وذات يوم سرت إشاعة حول رحلة أطول... وطيلة شهرين انقطعت أخبار المركب المذكور كلياً.. وفي آخر الأمر عُلم أن «لا بيل إيمّا» قد احتجز فور وصوله الى مرفأ صغير قرب نيويورك وصودرت منه حمولة كوكايين واقتيد كل أفراد طاقمه الى السجن... وكان ذلك في الفترة التي عملت فيها معظم المراكب التجاريّة، وخصوصاً تلك التي تنقل الملح الى القارة الجديدة، في تهريب الكحول...

ـ شكراً لك... لا تتحرّك يا ليون... وجاوب عن أسئلتي دون أن

تبرح مكانك... وعلى الأخصّ... أجب بما يقتضيه السؤال ليس إلّا!... أتسمعني جيّداً؟... أوّلاً، قل لي أين تمّ القبض عليك؟...».

مسح المتشرّد الدمَ الذي يغطي ذقنه وقال بصوت أجشّ:

«في روسبودن... داخل مستودع للسكة الحديد حيث كنّا ننتظر حلول الليل لنتسلل الى أي قطار...

ـ هل كنت تحملُ مالاً؟...

فأجاب ملازم الشرطة:

«أحد عشر فرنكاً وبضعة سنتيمات...».

رمق ميغريه إيمّا التي سالت دموعها على خدّيها ثمَّ التفتَ نحو الرجل الضخم المتقوقع على ذاته. وأحسَّ أن الدكتور برغم هدوئه الظاهر، قد أصيب بنوبة اضطراب حاد وأشار الى شرطي بأن يمكث على مقربةٍ منه تحسُّباً لأي طارىء.

كان المفوّض يُدوّن والريشة تحكّ الورقَ فتحدثُ خرتشةً مكتومة.

«حدّثنا، يا لو غليريك، عن حمولة الكوكايين والظروف التي رافقتها...».

رفع الرجل رأسه. ورمق الدكتور بنظراتٍ ثابتة مفعمة بالقسوة. وقال:

«لقد سلّفني المصرفُ مالاً لأبني مركبي...

ـ أعلم! وبعد...

ـ ثمّ حلّت علينا سنة ركود... كان سعر صرف الفرنك في ازدياد... وانخفض الطلب على الفاكهة من قبل التجّار الانكليز...

وكنتُ حائراً لا أعرف كيف سأتمكن من دفع فوائد الدين... كنت أنتظر سداد القسط الأكبر من المبلغ قبل زواجي من إيمّا... في ذلك الوقت جاءني صحافي كنتُ أعرفه لكثرة تردّده على المرفأ...».

عندئذٍ رفع أرنست ميشو رأسه فبدا وجهه الشاحب هادئ الملامح. وذُهل المجتمعون عندما سحب من جيبه دفتراً وقلماً ودوّن بضع كلمات.

«هل جان سرفيير هو الصحافي الذي عرضَ عليك حمولة الكوكايين؟

ـ ليس على الفور! حدّثني عن صفقة ما، على أن نلتقي في أحد مقاهي بريست حيث سينضم الينا شخصان آخران...

ـ الدكتور ميشو والسيد لو بومّيري؟

ـ أجل!».

راح ميشو يدوّن المزيد من الملاحظات وكانت ملامح وجهه تنضح بمشاعر الازدراء، وارتسمت على شفتيه ابتسامة سخرية.

«ومَن تولّى التفاوض معك، من بين هؤلاء الثلاثة؟».

فأصغى الدكتور قليلاً، قلمه بيده.

«لم يحدثني أحدٌ منهم عن الحمولة... أو الأحرى، لم أسمع منهم سوى كلام عن مبلغ كبير من المال سأحصل عليه خلال شهر أو شهرين... بعد ذلك بساعة واحدة انضمّ الينا رجل أميركي... لم أعرف اسمه... ولم أرَه سوى مرتين... لكنّه واسع الاطلاع في أمور الملاحة، لأنّه سألني عن مزايا مركبي وعدد أفراد الطاقم الذي أحتاجه والوقت الذي يستغرقه تجهيز المركب بمحرّك اضافي...

ظننتُ أن الأمر لا يتعدّى تهريب الكحول... كان مثل هذا الأمر شائعاً يمارسه الجميع، حتّى قباطنة البواخر.. وخلال الأسبوع التالي جاء قباطنة لا أعرفهم وجهّزوا «لا بيل إيمّا» بمحرّك ديزل إضافي...».

كان يتكلّم ببطء، ثابتَ النظرات، ويومىء بأصابعه الغليظة التي بدت، في اضطرابها، أكثر قدرةً على التعبير من وجهه المحايد.

«زوّدوني بخارطة ملاحة انكليزية توضح كلّ اتجاهات الرياح الأطلسيّة والنهج الذي تسلكه المراكب الشراعية، ذلك أني لم أقم بمثل تلك الرحلة من قبل... لم أصحب معي سوء رجُلين لمزيدٍ من التحوّط والحذر، ولم أُطلع أحداً على طبيعة الصفقة، باستثناء إيمّا التي كانت هناك، عند رصيف المرفأ، ليلة ابحارنا... وكان الرجال الثلاثة هناك أيضاً، قرب سيّارة مطفأة الكشافات... تمّت عملية الشحن خلال فترة ما بعد الظهر... وعندئذٍ ساورني القلق وشعرتُ بشيءٍ من الخوف... ليست بسبب عملية التهريب!... بل لأنني لم أذهب الى المدرسة في حياتي... فان اقتصر الأمر على إستعمال البركار والمسبار... لما خشيتُ من أحدٍ أو شيء... ولكن هناك في عرض البحر.. حاول أحد القباطنة المتقاعدين أن يعلمني كيف أستخدم السُدْسيّة لضبط المسار... وتزوّدت بجدول اللوغاريتم وكلّ ما يلزم... إلاّ أنني كنتُ واثقاً من أنني سأخطىء في اجراء الحسابات الضروريّة... ولكنّ العامل الحاسم الذي جعلني أخوض المغامرة كان المبلغ الذي عُرض عليّ، ففي حال نجاح المهمّة أتقاضى ما يكفي لسداد دين المركب بالاضافة الى عشرين ألف فرنك... كانت الرياح عاصفةً في تلك الليلة وأبحرنا مبتعدين حتى غابت عن

أنظارنا أخيلة الرجال الثلاثة والسيارة... ثمّ غاب طيف إيمّا وخيالها الأسود عند حافة الرصيف... شهران من الابحار في عرض البحر...».

كان ميشو يواصل تدوين ملاحظاته إلّا أنه كان يتجنّب النظر الى الرجل الذي تابع روايته:

«كانت لديّ تعليمات واضحة حول المرسى الذي نقصده وحول عملية تفريغ الحمولة... وفي آخر الأمر وحده الله يعلم كيف رسونا في الموضع المشار اليه... وما أن رمينا بالحبال الى اليابسة حتّى حاصرتنا ثلاثة زوارق للشرطة مزوّدة برشاشات ثقيلة وعلى متنها رجال مسلحون ببنادق، وما لبث هؤلاء أن صعدوا الى المركب وصوّبوا بنادقهم نحونا وراحوا يتصايحون بعبارات انكليزية ويضربوننا بأعقاب بنادقهم حتّى رفعنا أيدينا مُستسلمين...

«كنا لا ندرك شيئاً ممّا حدث فقد جرت الأمور بسرعة خاطفة... ولا أعلم من قاد المركب الى رصيف المرفأ وكيف أقلّتنا الشاحنة. وفي غضون ساعة واحدة كان كلٌّ واحد منا داخل قفص حديدي في سجن سنغ ـ سنغ...

«كانت حياة السجن لا تطاق... لا أحد هناك يتكلم الفرنسية... وراح السجناء يهزأون بنا ويكيلون لنا الشتائم...

«في تلك البلاد تتمّ الاجراءات بمثل هذا الشأن بسرعة غريبة... وفي اليوم التالي مثلنا أمامَ هيئة المحكمة وكان المحامي المعيّن للدفاع عنا هناك لكنّه لم يخاطبنا بكلمة واحدة!...

«إلّا أنه أخبرني، بعد صدور الحكم، أنني سأمضي سنتين في

السجن مع الأشغال الشاقة كما يتوجّب علي أن أدفع مئة ألف دولار كغرامة بالاضافة الى مصادرة المركب وكلّ محتوياته.. كنتُ لا أفهم حقاً... مئة ألف دولار!... أقسمت أنني لا أملك مالاً... لذلك أضيفت الى مدّة سجني بضع سنوات أخرى...

«مكثت في سجن سنغ ـ سنغ... أمّا أفراد الطاقم فاقتيدوا الى سجن آخر ولم أرهم منذ ذلك الحين... حلقوا شعري ساقوني الى طرقات قيد الانشاء لتكسير الحجارة... وأراد كاهن أن يفسّر لي تعاليم التوراة...

«كان الوضع السائد داخل السجن يفوق أي تصوّر .. فثمة سجناء أثرياء يُسمح لهم بالخروج كلّ ليلة تقريباً لقضاء سهرتهم في المدينة... أمّا الآخرون فكانوا بمثابة خدم لهم!...

«المهمّ... مضت سنة كاملة قبل أن ألتقي، ذات يوم، ذلك الأميركي الذي سبق أن رأيته في بريست؛ جاء الى السجن لزيارة أحدهم... عرفته على الفور.. وناديته.. لم يعرفني إلاّ بعد جهد، ثمّ قهقه ورافقني الى ردهة الاستقبال.

«كان ودوداً وعاملني كصديقٍ قديم... وأخبرني أنّه يعمل منذ سنوات كعميل سرّي لصالح لجنة تحريم الخمور... وكانت معظم مهمّاته في الخارج، في انكلترا وفرنسا وألمانيا ومن هناك يبلّغ الشرطة الأميركية عن مراكب التهريب التي ستصل الى أميركا...

«إلاّ أنه في الوقت نفسه كان يُشارك، من حينٍ إلى آخر، في بعض عمليات التهريب لحسابه الخاص، وصفقة الكوكايين واحدة من الصفقات التي شارك فيها لأنّ أرباحها تبلغ بضعة ملايين، فقد

بلغت الحمولة عشرة أطنان، ولست أدري بالضبط كم من الفرنكات ثمن الغـرام الواحـد... ولهذا الغرض اتصل ببعض الفرنسيين لتـديّر أمر المركب بالاضافة الى قسمٍ من التكاليف... وهكذا تمّ الاتفاق مع أصحابنا الثلاثة... وبالطبع كانت الأرباح ستقسم الى أربع حصصٍ متساوية...

«ولكنّ هذا ليس كلّ شيء!... يبقى أن أروي على مسـامعكم أجمل الفصول وأكثرها تشويقاً... ففي اليوم الذي تمّ فيه شحن البضاعة في كويمبر، تلقى الاميركي إخطاراً من بلده... فقد عُيّن رئيس جديـد للجنـة التحـريم... وأمر بتشديد المراقبة... ولذلك أصبـح المروّجون الأميركيون أقل اقبالاً على الشراء، ما يعني أن البضاعة قد لا تسوّق...

«وفي مقـابـل ذلك صدر مرسوم جديد ينصّ على منح كلّ من يساعد على ضبط بضائع محرّمة مكافأة قد تصل الى ثلث قيمة هذه البضاعة...

«تخيّلوا أنّ الرجل صارحني بكلّ هذا في السجن!.... وعلمتُ أيضـاً أنّه بينما كنتُ أرفع المرساة قلقاً تساورني الشكوك حول قدرتي على عبـور الأطلسي حيّـاً، كان أصحـابنـا الثلاثة ومعهم الأميركي يناقشون الأمر على رصيف المرفأ...

«المجازفة بالكل لربح الكل؟... أعلم أن الدكتور هو الذي أصرّ على الوشاية... فبهذه الطريقة يضمن استرداد ثلث الرأسمال دون التورّط في أمور لا تُحمَد عقباها.

«فضلاً عن أن الأميركي اتفق مع زميل له هناك باخفاء جزء من

البضاعة ليُصار الى بيعها فيما بعد. وخُطط ومؤامرات لا يتصوّرها عقل!... أعلم!...».

«كان «لا بيل إيمّا» يمخر مياه المرفأ السوداء... وكنتُ ألقي نظرةً أخيرة على خطيبتي واثقاً من زواجي منها بعد ذلك ببضعة أشهر...

«أمّا هم فكانوا يراقبون ابحارنا ويعلمون أننا سنجد الشرطة في انتظارنا هناك!... وربّما كانوا يأملون بأن نقاوم الاعتقال، وبهذه الطريقة نلاقي حتفنا، فقد كانت مثل هذه الأمور تحدث تكراراً في المياه الاقليمية الأميركية...

«كانوا يعلمون أن السلطات ستصادر مركبي الذي لم أسدّد كلّ أقساطه بعد، وانني لا أملك شيئاً سواه في هذه الدنيا!...

«وكانوا يعلمون أنني لا أحلم إلّا بالزواج... وكانوا يراقبون ابحارنا!...

«هذا ما أسرّه الي الرجل في سنغ ـ سنغ، حيثُ تعلّمتُ أن أصبح وغداً بين أوغاد... وزوّدني بأدلّة تؤكد كلامه... وكان الأميركي يضحك، ويقهقه ضارباً فخذه براحتيه:

«ثلّة أوغاد، أصحابك الثلاثة!».

وفجأة ساد صمت مُطبق، فلا يُسمعُ إلّا حفيف ريشة ميشو فوق الورق.

نظر ميغريه ـ وقد أدرك ما يرمزان اليه ـ الى حرفي س. س الموشومين على يدِ الرجل الضخم: «سنغ ـ سنغ»!

«كنتُ أحسبُ ان عقوبتي ستمتد لعشر سنوات أخرى... ففي تلك البلاد، هناك دائماً ما لا تتوقّعه... أي خرق لنظام السجن قد يؤدّي الى تمديد فترة العقوبة، وفي الوقت نفسه تنهال الهراوات على رأسك... لقد تلقيت منها المئات... ومئات أخرى من قبضات رفاق السجن!... ثمّ عمد الأميركي الى القيام ببعض الاجراءات لمساعدتي... وأحسبُ أن جُبنَ من يسميهم أصدقائي قد أثار اشمئزازه... لم يكن لديّ رفيق إلّا كلبي... كلبٌ ربّيته على متن المركب وأنقذني مراراً من الغرق، وقد سمحوا لي هناك، برغم كلّ أنظمتهم الصارمة، أن أستبقيه في رفقتي... ذلك أنهم لا يرون الى هذه الأمور كما نرى اليها نحن... جحيم!... لكنّهم يبثون فيه ألحاناً موسيقية يوم الأحد، ولا يعني هذا أنّك لن تُضرب بعدَ ذلك إلى أن تنزف دماً... وفي آخر المطاف أصبحتُ لا أعرفُ إن كنتُ لا أزال كائناً بشرياً... وكم بكيتُ منتحباً، مئة مرّة، ألف مرّة...

«وعندما فُتح باب الزنزانة ذات صباح وودّعني الحارسُ بعقب بندقية في الظهر قذف بي الى الحياة المتمدِّنة في الخارج، أغمي علي، ببساطة، وارتميت فوق أحد الأرصفة... نسيتُ كيف يحيا البشر... وفقدتُ كلّ شيء...

«بلى! لم يبق لي سوى شيء واحد...».

كانت شفته المشقوقة تنزف ولم يمسح الدم النازف منها. وكانت السيّدة ميشو تغطي وجهها بمنديل من الدانتيلا وقد فاح منهُ عطرٌ يثيرُ الغثيان. أمّا ميغريه فراح يدخّن مُطمئناً، ولا يحيد بعينيه عن الدكتور الذي واصل تدوين ملاحظاته:

«لم يبقَ لي إلّا إلحاحُ الرغبة في أن أردَّ الاساءة مضاعفةً للذين

أفسدوا حياتي!... ليس الرغبة في قتلهم! لا!... الموت أمرٌ هيّن .. لقد حاولتُ أن أقتل نفسي في سجن سنغ ـ سنغ أكثر من عشرين مرّة، ولم أفلح... لقد امتنعتُ عن الطعام فأطعموني بوسائلهم الاصطناعية... أردت فقط أن أذيقهم مُرَّ السجون! وحبّذا لو أنهم يذوقون مُرَّ السجون الأميركية... ولكنّه أمرٌ مستحيل.

«تشرّدتُ في أحياء بروكلين وزاولت كلّ أنواع المهن لأكسبَ ما يكفي لشراءِ تذكرة العودة على متنِ مركب... برفقة كلبي .».

«وكانت إيمّا بعيدة لا أعلم أين أصبحت... لم أشأ أن أعود الى كويمبر، حيثُ يسهل التعرّف الي برغم سُحنتي القذرة...

«وهنا علمتُ أنها تعمل كخادمة وأنها، للمناسبة، عشيقة ميشو... وربّما عشيقة الآخرين أيضاً؟... إنها خادمة، أليس كذلك؟...

«وأدركت أنّ ارسال الأوغاد الثلاثة الى السجن ليس بالأمر الهيّن... ومع ذلك كنتُ مُصرّاً!... إذ لم يبق لي سوى تلك الرغبة!... أقمتُ برفقة كلبي على متن مركب جانح، ثمّ انتقلت الى مركز الحراسة القديم، عند رأس كابيلو.

«ورحتُ أتعمّد التسكُّع في الأنحاء حيث يستطيع ميشو أن يراني... كنتُ أريده أن يراني، لا أكثر!... أن يرى سحنتي البشعة وبنيتي الفظّة!... أوتدرك ما أقصده؟... أردتُ أن أخيفه... أن أثير في روعه ذلك الرعب الذي قد يدفعه الى محاولة قتلي!... لم أكن أبالي بالموت.... ولكن بعد ذلك؟... السجن، سيكون مصيره السجن!.. والضربُ ركلاً أو بأعقاب البنادق!... والرفقة المقزّزة، وجوار الأقوياء الذين يرغمونه على خدمتهم... كنتُ أتسكّع في جوار الفيللا التي

يسكنها... وأتعمّد أن ألتقيه في الطريق... ثلاثة أيام! أربعة أيام..! وفي آخر الأمر عرفني... وأصبح لا يُغادر منزله إلّا في مناسباتٍ قليلة... وبـرغم ذلك، كانت الحيـاة مستمرّة، لم تتبدّل عاداتهم، يلتقـون، كلّ مسـاء حول أقـداح الشراب، الأصدقاء الثلاثة!... والنـاس تحيّيهم!... وكنتُ أسرق ما تطول اليـه يدي لكي أُشبع جوعي... وأردت أن ينتهي الأمر بسرعة...».

علا صوتٌ واضح

«عفـواً، أيّهـا الكوميسّير! أتظنُّ أن هذا الاستجواب في غياب قاضي التحقيق، له صفة قانونيّة؟».

صوت ميشـو!... ميشـو الشاحب مثلَ ملاءة سرير، المشدود القسمات، ذو الشفتين المتربتين، إلّا أن صوته جاء واضحاً وشبهِ متوعّد!

غمزَ ميغريه أحدَ رجال الشرطة بأن يقف بين الدكتور والمتشرّد. فقد احتدمت الأمور! كان ليون لوغليريك ينهض عن كرسيّه ببطء وقد أثاره الصوت، مشدودَ القبضتين كأنّهما دبّوسان ثقيلان.

«اجلس!... اجلسْ يا ليون!...».

وفيما كان الرجلُ الضخم يُعاود الجلوس راضخاً وقد تسارعت أنفاسه، قال الكوميسّير بعد أن نفضَ رماد غليونه:

«لقد حان دَوْري للكلام!...».

-١١-

الخوف

كان كلامَه يُباينُ، بسرعته ونبرته المنخفضة، خطاب البحّار المؤثر والذي راح يرمقه بطرف عينه.

«أبـدأ أيّهـا السـادة بكلمـة عن إيمّـا.. يبلغهـا نبأ اعتقال خطيبها... وتنقطع أخباره عنها... وذات يوم، ولسبب تافه، تفقد وظيفتها وتصبح خادمة في فندق «أميرال»... إنها فتاة فقيرة ليس لديهـا أي ارتبـاط. يغـازلها الرجال كما يغازلُ الرجالُ الأثرياء خادمـة... انقضت الأعـوام، عامـان، ثلاثة... وتجهل أن ميشو مذنب... توافيه، ذات مساء، الى غرفته. وينقضي الوقت، والحياة تستمر... لميشو عشيقات أخريات... ومن حين الى آخر، وفق تقلّبات مزاجه، تستبدّ به الرغبة في الاقامة في الفندق!... أو حين تغيب أمّه عن المنـزل يطلب من إيمّـا أن تأتي اليـه.. غراميات كامدة بلا حبّ... وحيـاة إيمّـا كئيبـة... ليست بطلة... تحتفظ داخل علبةٍ مصدّفة برسالة مصورة إلّا أن الماضي أصبح حلماً بعيداً ويضاعف تصرّم الوقت من بُعده...

«لا تعلم أن ليون عاد...

«ولم تتعرّف الى الكلب الأصفر الذي لا يُبارح جوارها والذي

غادر على متن المركب وعمره أربعة أشهر...

«ذات ليلة، يمـلي عليهـا ميشو نصّ رسالة دون أن تعلم لمن سيرسلهـا... وكـانت الرسـالة تحـدّد موعداً في منزل شاغر عند الحادية عشرة مساءاً...

«فتكتب ما يمليــه عليهــا... إنهـا خادمــة!... أتــدركـون ما أقصــده؟... لم يخــطيء ظنّ ليون لوغليريك... ميشو خائف! .. يشعر أن حياته في خطر... ويريد التخلّص من العدو الذي يطارده...

«ســوى أنــه جبان!... واعترف لي بملء صوته أنّه جبان!... سيختبىء خلف باب، عنـد الرواق، بعـد أن يتـدبّر أمر وصول الرسالة الى ضحيّته بواسطة الكلب، فقد ربطها بخيط حول عنق الكلب...

«هل سيرتاب ليون بشيء؟... ألا يودّ، برغم كلّ شيء، أن يرى خطيبتــه السابقة؟... وما أن يقرع الباب، يكفي أن يُطلق ميشو رصاصة عبر علبة البريد ثمّ يفرّ عبر الزقاق. . وسيكتنف الغموض جريمته لأنّ هوية الضحية ستظل مجهولة!...

«ولكنّ ليـون تصرّف بحـذر... ربّما تسكّع في جوار الساحة.. وربّما عقد العزم على الذهاب، برغم كلّ شيء، إلى موعده؟... إلّا أن المصادفة تشاء أن يغادر السيّد موستاغين المقهى في تلك الأثناء وقد أثقل الشرابُ رأسه فيقف عند العتبة لاشعال سيكاره... يقفُ مترنحاً.. فيرتطم بالباب... إنّها الاشارة... تنطلق رصاصة وتستقرّ في بطنه...

«هــذا بشــأن القضيّــة الأولى... لقد أخفق ميشو.. وعاد الى منـزله... فيستبد الذعر بكلٍّ من غويار ولو بومّيري اللذين عَلِما بعودة ليون وأدركا الخطر الذي يتهدّدهم، هم الثلاثة...

«وأدركت إيمّا طبيعة اللعبة التي استدرجت اليها... قد تكون رأت ليون؟... أو ربّما تعرّفت بعد تفكير الى الكلب الأصفر؟...

«في اليوم التالي أُستدعى الى مسرح الجريمة .. وألتقي الرجال الثلاثة... وأُشعرُ بما يستبدّ بهم من ذعر... إنهم يترقّبون وقوع جريمة!... وأريد أن أعرف الجهة التي يتوقعون الضربة منها... وأحرص على التثبّت من صحّةِ افتراضي...

«أدسُّ السمَّ في قنينة شراب، ولا خبرة لي في مثل هذه الأمور... إلّا أنني أراقب الجميع بُغية التدخّل فوراً لمنع أيٍّ منهم من احتساء الشراب المسموم... ولكن لا!... ميشو لا تنقصه اليقظة!... وميشو يرتاب بكلّ شيء، بعابري السبيل، بما يقدّم له من شراب... حتّى انه لا يجرؤ على مغادرة الفندق...».

مكثت إيمّــا مشــدوهــةً لا تحــرّك ساكناً كأنها الصورة المثلى للذهــول. أما ميشو فقد رفع رأسه لثوانٍ، ليرمق ميغريه بنظراتٍ ثاقبة في العينين، ثمّ عاود تدوين ملاحظاته بسرعةٍ محمومة.

«هذه وقائع الجريمة الثانية، يا سيّدي العمدة! والثلاثي الذي نعرفه لا يزال على قيد الحياة، ويواصل خوفه... وقد يكون غويار أبرع الثلاثة على الاطلاق ولا تعوزه الحيلة... لقد افقدته حادثة الشراب المسموم رباطة جأشه... وأحسّ أنّه ذات يوم لن يتمكن من النجــاة... ويــدرك أني أقتفي الأثــر الصحيــح... فيُصمم على الفرار... الفرار دون أن يترك أي أثر... أن يتمكن من الفرار دون

أن يُتهم بالفرار... فينفّذ مسرحية الاعتداء عليه ليوهم الناس بأنّه قتل وألقيت جثته في مياه المرفأ.

«قبل أن ينفّذ لعبته، خطر له أن يجول في الأنحاء بجوار منزل ميشو بحثاً عن ليون لكي يقنعه بالتخلي عن ثأره... وهناك يعثر على أثر أقدام المتشرّد. ويدرك جيّداً أنني سأهتدي اليها أنا أيضاً.

«ذلك أنّه صحافي!... ويعلم فضلاً عن ذلك أن جمهور الناس قابل للتأثر بسرعةٍ غريبة... ويعلم يقيناً أنّه لن يكون في مأمن ما دام ليون على قيد الحياة... فيهتدي الى خدعةٍ متقنةٍ بالفعل: المقالة التي كتبها باليد اليسرى وأرسلها إلى صحيفة «لو فار دو بريست...».

«تتناول المقالة قضيّة الكلب الأصفر والمتشرّد... وكلّ عبارة وردت فيها كانت محسوبة بدقّة ومتعمّدة بهدف اثارة الذعر بين سكان كونكارنو... وبهذه الطريقة يُصبح الرجلُ ذو القدمين الهائلتين مُعرَّضاً، في أية لحظة، لرصاص الأهلين بحجة الدفاع عن النفس...

«وكاد المتوقّع أن يحدث فعلاً... فقد أطلقت النار على الكلب... وكان من الممكن جدّاً أن تطلق النار على الرجل نفسه!... ذلك أنّ الناس قد يفعلون أيّ شيء إذا استبدّ بهم الهلع...

وبالفعل، سادت المدينة موجة من الذعر منذ صباح يوم الأحد... لم يُغادر ميشو... أسقمه الخوف... إلّا أنّه يعقد العزم على الدفاع عن نفسه حتى النهاية، وبكلّ الوسائل الممكنة...

«أدعه برفقة لو بومّيري... ولا أعلم ما الذي دار بينهما... لاذ

غويار بالفرار... أمّا لو بومّيري الذي ينتمي الى عائلةٍ عريقة النسب في المنطقة، فلا بدّ أنّه فكّر، ولو بتردّد كبير، باللجوء الى الشرطة والاعتراف بكل شيء بدل أن يحيا مثل هذا الكابوس المتواصل... فبماذا سيتهمونه؟... قد يدفع غرامة!... أو مدّة قصيرة في السجن!... بالكاد!... فالجريمة الفعلية قد ارتكبت في أميركا...

«وبعد أن اتضح له أن لو بومّيري بدأ يفقد السيطرة على نفسه وبعد أن اقترف جريمة موستاغين، يعمد ميشو الى قتل لو بومّيري بالسمّ لأنّه يريد النجاة مهما كلّفه الأمر وبكافة الوسائل الممكنة...

«إيمّا هنا... ألن تدور الشبهات حولها؟...

«وأودّ أن أطيل الحديث عن الخوف، لأنّ الخوف هو المسبّب الرئيس لكلّ هذه الجرائم... ميشو يخاف... ويودّ أن يتغلّب على خوفه وربّما أكثر بكثير مما يودّ النيل من عدوّه...

«فهو يعرف ليون لوغليريك جيّداً. ويعلم أنّه لن يستسلم لأية محاولة لاعتقاله دون مقاومة... وفي أعماقه يأمل أن تنال منه رصاصة يطلقها عليه شرطي أو أحد السكّان المذعورين فينتهي أمره...

«لا يغادر الفندق... فأحضر الكلب الجريح المحتضر.. كنتُ أودّ التثبت من أن المتشرد سيأتي بحثاً عنه، وجاء المتشرّد بالفعل...».

«ومنذ ذلك الحين لم يظهر الكلب لذلك أعتقد أنه مات...».

فقال ليون بغصّة مكتومة:

«أجل...

ـ وهل دفنته؟...

ـ في كابيلو.. ووضعتُ على القبـر صليبـاً صغيراً صنعته من أعواد التنّوب.

ـ تعثر الشرطة على ليو لوغليريك. فيهرب، لأنّ جُلّ ما يريده هو أن يدفع ميشو للاعتداء عليه... وقال بصراحة: يريد أن يراه في السجن... واجبي أن أحول دون وقوع جريمة أخرى ولذلك أمرت بتوقيف ميشو، مؤكداً له أنه تدبير احترازي لضمان سلامته.. لم أكذب... ولكن، في الوقت نفسه كنتُ أمنع ميشو من ارتكاب جرائم أخرى... فقد أصبح عاجزاً عن التحكم بردود فعله... وقد يفعل أي شيء... يشعر أنّه مهدّدٌ من أكثر من جهة...

ولكنّ هذا لا يعني أنه أصبح عاجزاً عن التظاهر والتمثيل، وعن التحـدّث إلي مطوّلاً عن ضعف بنيتـه، وأن يفسر لي هلعـه بميله الزهدي الذي يعودُ الى نبوءة عرّاف ابتكرها جملةً وتفصيلاً...

«وأمله الوحيد أن يعمد الأهلون الى قتل عدوّه...

«وربّما كان يعلم أن أي تفكير منطقي قد يوجّه الشبهات نحوه بشأن كلّ الجرائم التي وقعت... ولذلك مكث في زنزانته يفكّر ويقلب الأمور على أكثر من وجه...

«أمـا من وسيلة لابعـاد الشبهـات عنه نهائياً؟... فقط وقوع جريمة أخرى في الوقت الذي يكون فيه نزيل السجن؛ أهناك إثبات غيبة أفضل من هذا الاثبات وأمتن؟...

«تأتي أمّه لزيارته... ويُسرّ اليها بكلّ شيء... يجب أن تظلّ بعيدة عن الشبهات، وأن تتثبّت من أن أحداً لا يتعقّبها... يجب أن تنقذه!...

«ستتناول طعام العشاء الى مائدة العمدة. وسيقلّها سائقه فيما بعد الى منزلها حيث ستبقى اللمبة مضاءةً طيلة الأمسية... وستعود الى المدينة سيراً على الأقدام... هل المدينة نائمة؟... أجل، باستثناء مقهى «أميرال»!.. ويكفي أن تنتظر خروج أحد روّاده، وأن تكمن له عند ناصية الشارع...

«ولكي تجعل الضحية عاجزةً عن الركض، ستصوّب الى الساق...

«إنّ هذه الجريمة، المجّانية كلّياً، لتكون أسوأ ما سيوجه الى ميشو من تهم لولا أنّ ثمة جرائم أخرى أسوأ منها... عندما أصل الى الزنزانة هذا الصباح، يبدو مهتاجاً وعصبياً... لا يعلم أن الشرطة قد ألقت القبض على غويار في باريس... ويجهل أنني كنتُ أراقب المتشرّد لحظة اطلاق الرصاصة على الجمركي...

«ذلك أن ليون المطارد مكث في الجوار عند تجمّع المباني.. لقد عيل صبره.. ولا يريد الابتعاد عن ميشو..

«ينام في احدى غرف المبنى الشاغر... فتراه إيمّا عبر نافذتها... وها هي تذهب لملاقاته... فتصرخ في وجهه أنها ليست مذنبة!... وترتمي أرضاً وتتوسل راكعةً ..

«كانت تلك المرّة الأولى التي يتقابلان فيها وجهاً لوجه، ويسمع مجدّداً نبرة صوتها... فقد كانت ملكاً لشخص آخر، لا بل لآخرين كثر...

«ولكن، ألم يذق الأمرّين طيلة السنوات المنصرمة؟... فيرقّ لها قلبه... فيحتضنها بذراعيه الفظتين ويقبّلها».

«لم يعد ليون الرجل المستوحد الذي كانه، رجل الهدف الوحيد، والفكرة الثابتة... وحدّثته دامعةً عن السعادة الممكنة، وعن الحياة المقبلة التي قد تبدأ من جديد...

«ويرحلان سوياً، مفلسين في عتمة الليل... يسيران إلى وجهة غير محدّدة!... ويخلفون ميشو وراءهم وقد افترسته المخاوف...

«سيحاولان أن يجدا سعادتهما في مكانٍ آخر...».

راح ميغريه يحشو غليونه، متباطئاً، محدجاً كلَّ الحاضرين في الزنزانة واحدهم تلو الآخر.

أرجو المعذرة يا حضرة العمدة لأنني لم أطلعك على مجريات التحقيق... والحقيقة أنني حين وصلتُ الى المدينة أيقنتُ أن الجريمة التي وقعت في البداية ليست سوى البداية... ولكي نهتدي الى طرف الخيط كان ينبغي أن ندع السلسلة تتواصل مُتجنّبين القدر الأكبر من الأضرار.. لقد مات لو بومّيري مقتولاً على يد شريكه... ولكنّ ما أراه شخصياً أن لو بومّيري بالذات كان ليقتل نفسه لحظة اعتقاله... أصيب جمركي برصاصة في ساقه.. ولكنه سيتعافى خلال ثمانية أيام... بالمقابل، أستطيع أن أوقّع على مذكرة توقيف بحق الدكتور أرنست ميشو بتهمة محاولة القتل والتسبب بجرح السيّد موستاغين، وبتهمة قتل صديقه لو بومّيري عمداً بواسطة السمّ. ومذكرة أخرى بحق السيّدة ميشو بتهمة الاعتداء الليلي.. أما جان غويار، الملقّب سرفيير فأحسب أنه لن يُقاضى إلا بتهمة تضليل العدالة بعد التمثيلية المضحكة التي لعبها...».

كانت عبارة الكوميسّير الأخيرة الدعابة الوحيدة التي لطّفت

أجواء الاتهام. صوت تنهّد عميق! تنفّس الصحافي الصعداء وبدا مبتهجاً، فتجرّأ على القول:

«في هذه الحال، أمن الممكن أن يطلق سراحي بكفالة مالية؟... أنا مُستعد لدفع مبلغ خمسين ألف فرنك...

ـ المحكمة هي التي تقرر قيمة الكفالة يا سيد غويار...».

كانت السيدة ميشو قد انهارت متهالكةً فوق الكرسي، إلاّ أن ابنها بدا رابط الجأش.

«أليس لديك أقوالٌ أخرى؟ سأله ميغريه.

ـ عفواً! سأجيب عن الأسئلة بحضور مُحامٍ. وفي الانتظار أبدي كلَّ تحفظ ممكن حيال شرعية هذه الجلسة...».

ومطّ عنقه الذي يُشبه رقبة ديك هزيل وقد برزت جوزته المائلة الى الاصفرار. بدا أنفه أكثر اعوجاجاً وظلّ ممسكاً بالدفتر الذي دوّن عليه ملاحظاته.

«وهذان؟... تمتم العمدة وقد نهض عن الكرسي.

ـ ليس لديّ أية تهمة قد توجّه اليهما.. لقد اعترف ليون لوغليريك أن هدفه هو أن يدفع ميشو لاطلاق النار عليه... ولتحقيق هذا الهدف اكتفى بأن يتعمّد الظهور أمامه... ولا وجود لمادة قانونية قد...

ـ إذا استثنينا تهمة التشرّد...» قال ملازم الدرك مقاطعاً.

إلاّ أن الكوميسّير هزّ كتفيه باستهزاء ما جعله يحمرّ خجلاً للاقتراح الذي تقدّم به.

*

* *

وبرغم أنَّ الساعة كانت قد جاوزت ميعاد الغداء بكثير، مكث الناس مُحتشدين في الخارج. ووافق العمدة على اعارتهم سيّارته التي كُسيَ زجاجها بستائر محكمة.

صعدت إيمّا أوّلاً، ثمّ ليون لوغليريك، وأخيراً ميغريه الذي جلس الى جانب المرأة الشابة فيما جلس البحّار، مرتبكاً، فوق مقعد متحرّك.

اجتازت السيّارة أماكن الاحتشاد بسرعة. وفي غضون دقائق معدودة كانت تسلك الطريق المؤديّة الى كويمبرليه وسأل ليون مرتبكاً، غائمَ النظرات:

«لماذا قلت ذلك؟...

ـ ماذا؟...

ـ انَّك دسَستِ السمَّ في القنينة؟».

كان وجهُ إيمّا ممتقعاً فاقدَ اللون، لا تجرؤ على اسناد ظهرها الى الخلف، إذ لا بدّ أنّها المرّة الأولى في حياتها التي تستقل فيها سيّارة ليموزين.

«كانت مجرّد خاطرة!...» غمغم ميغريه قائلاً وقد عضّ على مبسم غليونه.

وعندئذ قالت الفتاة بنبرة صراخ يائس:

«أقسم لك يا كوميسّير، أنني كنتُ لا أدري ماذا أفعل!... لقد أملى علي ميشو الرسالة... وتذكرت، بعد وقت، الكلب الأصفر... وصباح يوم الأحد شاهدتُ ليون يتجوّل في الجوار... وعندئذ، أيقنتُ حقيقة ما يجري.. حاولتُ أن أكلّم ليون لكنّه تجاهلني تماماً

وبصقَ على الأرض... أردت أن أثــأر له... أردت... وما أدراني، أنا!... كنتُ كالمجنونة... وكنتُ أعلمُ أنهم يريدون قتله... وما زلتُ أحبّه... أمضيتُ نهاري أقلّبُ الأفكار في رأسي... وعند الظهر، خلال فترة الغداء، هرعتُ الى فيللا ميشو لأحضر السمّ... كنتُ لا أعرف أيَّ سمٍّ أختار... رأيت الدوارق من قبل وقال لي ميشو عندها أنّها تحتوي على سموم كافية لقتل كونكارنو بأسرها...

«ولكن أقسم لك أنني ما كنتُ لأدعكم تشربون أقداحكم... أو على الأقل أعتقد أنني ما كنتُ لأفعل.

كانت تنتحب وراح ليون يربّت على ركبتها برفق لكي يُهدىء من روعها.

«لو تعلم، أيّها الكوميسّير كم أنا ممتنّة لك، قالت إيمّا بصوتها الذي يهدّجه البكاء... فما فعلته من أجلي لا.. لا.. لا أجد الكلمات لوصفه... إنّه رائع ومدهش!...».

كان ميغـريـه يتـأملهما، ليون بشفته المثلومة وشعره الحليق وقسمـاتـه الفـظة التي تحاول أن تصبح أنسيّة، وإيمّا بوجهها الشاحب المتغضن لفرط ما كابدت في ذلك الأكواريوم الضخم الذي يُدعى مقهى «أميرال».

«ماذا ستفعلان الآن؟...

ـ لستُ أدري بعد... قد نغادر المنطقة... ونذهب الى «لو هافر»، ربّما فعلنا؟... لقد تدبّرتُ أمر معيشتي في مرافىء نيويورك، طيلة تلك المدّة...

ـ هل أعادوا اليك فرنكاتك؟».

احمرّ ليون ولم يجب.

ـ كم ثمن التذكرتين من هنا الى «لو هافر؟...

ـ لا! أرجوك، لا تفعل يا كوميسّير... لأنك لو فعلت... لما استطعنا أن... أوتدرك قصدي؟...».

نقـر ميغـريه باصبعه على الزجاج فقد مرّت السيّارة بمحطة قطارات صغيرة. وسحب ورقتين نقديتين من فئة المئة فرنك من جيبه.

«هاكَ بعض المال... وسأضيفها الى حساب المصاريف..».

ثمّ دعاهما الى النزول كأنّه يُرغمهما، وأغلق باب السيّارة فيما مكثا في الخارج يعبّرانِ عن امتنانهما.

«إلى كونكارنو!... بسرعة!...».

وإذ أصبـح وحيـداً داخل السيّارة هزّ كتفيه ثلاث مرّات على الأقلّ، كمن تملّكته الرغبة الملحّة في أن يهزأ من نفسه.

*

* *

استمرّت المحاكمة سنة كاملة. ولسنة كاملة كان على الدكتور ميشـو أن يمثـل أمـام قاضي التحقيق وأحيـاناً لخمس مرّات في الأسبـوع الواحد؛ وكان في كلّ مرّة يُشاهد حاملاً حقيبته الجلد المليئة بالوثائق والأوراق.

وفي كلّ جلسة استجواب كان ينتهز أية فرصة مؤاتية للمساجلة والشجار.

كل مستند من مستندات القضيّة كان يشكل مادة للأخذ والردّ والتحقيقات والتحقيقات المضادة.

كان ميشو يزداد نحولاً وامتقاعاً، ويزداد مزاجه حدّةً، إلاّ أنّه لم يستسلم.

«اسمحوا لرجل لم يبق من سنوات عمره إلاّ بضعة أشهر. ..».

تلك كانت عبارته المفضّلة. كان يتولّى الدفاع عن نفسه بضراوة ومناورات وردود غير متوقّعة. وعثر على محامٍ ذي مزاجٍ صفراوي لإعانته في صراعه.

أصدرت محكمة الجنايات في حقّه حكماً بالسجن لمدة عشرين عاماً مع الأشغال الشاقة، ومكث طيلة الأشهر الستة التالية مترقباً أن تنظر محكمة التمييز في قضيّته.

إلاّ أن صورة التقطت منذ نحو الشهر ونشرت في كل الصحف أظهرته، كما كان دائماً، نحيلاً وصفراوياً أعوج الأنف، وحقيبته فوق ظهره وقبّعة المساجين فوق رأسه، وقد أنزلته سفينة «لا مارتينيير» برفقة مئة وأربعة وثمانين سجيناً آخر عند شاطىء جزيرة «ريه».

وفي باريس، كانت السيدة ميشو تحاول، بعد انهاء عقوبة ثلاثة أشهر في السجن، أن تتصل ببعض الأوساط السياسية. وتزعم أنّها نالت وعداً بإعادة المحاكمة.

أصبحت مالكةً لصحيفتين.

ليون لوغليريك يصطاد سمك الرنكة في بحر الشمال على متن المركب «لا فرانسيت»، وزوجته تنتظر مولوداً.